نفرتيتي

ربة الجمال والتاج

تأليف

صوفي عبد الله

الكتاب: نفرتيتي ربة الجمال والتاج

الكاتب: صوفي عبد الله

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الله ، صوفي

نفرتيتي ربة الجمال والتاج/ صوفي عبد الله

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٨٩ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٢٠ / ٢٠٢٠

نفرتيتي
ربة الجمال والتاج

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

سلاما أيها القارئ

مِن الناس مَن حياته نفحة من نسيم, ومنهم مَن حياته لفحة من نيران الجحيم، ومنهم من يمر بالدنيا كالإعصار لايبقي ولا يذر, ومنهم من يشيد فيها ويعمر, ومن يجيء إليها ويمضي عنها بلا حس ولاخبر, ومن يشرق فيها إشراقة البدر, ومن يفعل فيها فعل الوابل الغمر, فإذا مضى بقى من بعده ما أنبت من خير وما خلف من بِر, ومنهم من لاينفع ولايضر, ولكنه كالزهر يزهو بالحسن وينفح بالعطر.

فأي من هؤلاء نفرتيتي؟ وأي من هؤلاء هذا الكتاب الذي يتسم باسمها الذائع في الآفاق؟.. إنها ملكة مصر في عصرها الذهبي التليد, وإنها أسطورة الجمال المصري العريق, إنها صاحبة أجمل تمثال وأشهر تمثال من ذلك الزمان السحيق... فهي نور مشرق إذا نظرنا إلى الملك والتاج، وهي زهرة مونقة ذات عبير إذا نظرنا إلى الجمال الرائع، وهي نفحة من نسيم ندى إذا نظرنا إلى الفن الرفيع.

فأي كتاب هذا؟ وما دعواه؟.. أكتاب تاريخ هو, أم كتاب في الفن ومذاهبه, وعلم الجمال ومناهجه؟ وهل هو ترجمة حياة, أم هو صورة فترة من حياة شعب؟ وهل هو متحف طرائف, أم هو نافذة تطل على خضم اجتماعي زاخر بالتيارات والمؤثرات والأحداث؟...

إنه بعض من كل ذلك, وشيء فوق كل ذلك, إذا صدقت دعواه ونفذ

إلى غاية مرماه...

فهو صورة حياة امرأة, ولكنها امرأة لا تستأثر أنوثتها بجوهر حياتها ومبلغ أثرها،فهي ملكة ذات جلال وجمال.

وليس هذا أكبر شأنها وإنما أكبر شأنها أنها امرأة «روح عظيم» من أنبل وأشرف من نهضوا بالرسالات الإنسانية, وحملوا «الأمانة» بتكليف من سرائرهم، وأنها زوج ملك وزوج قديس وُلِد للسلطان, فنذر نفسه للفتوح في عالم الروح, واستبدل بالسيف غصن الزيتون, وجعل من الحب ناموس حياته وحياة الناس, ضاربًا بحبه زوجته نفرتيتي المثل لكل حياة كاملة للنفس التي تطلب الأمن والسلام.

وأن الأجيال لتنطوي في أثر الأجيال, قبل أن يظهر في هذه الأرض المنكودة –أرض البشر– روح عظيم بعد أن يفارقها روح عظيم.. فما أكثر الناس أيها القاريء، ولكن ما أقل العظماء حقاً! وقليل من العظماء مَن عظمتهم مستمدة من نبع الروح القدسي والقلب الطاهر النقي.

ولقد درجت الحضارة في مصر طفلة, ومشت يافعة, وخطرت شابة, فقامت على ضفاف النيل الهياكل والمحاريب, وتوطد ركن الدولة, وامتد سلطانها في المشرق، والمغرب، والشمال، والجنوب.. ولم يكن ذلك كله مددًا من عالم الروح, فليس في تاريخ مصر كله –قديمه وحديثه– «روح عظيم» يقرن إلى ملكها القديس «اخناتون»!

ولم يقدر لامرأة في تاريخ مصر كله –قديمه وحديثه– أن تعيش في جو روحاني كالذي عاشت فيه زوجته وأخته نفرتيتي، ولم يقدر لملكة أن تعاصر صراعًا أهول ولا أروع من الصراع الذي شهدته نفرتيتي رأي العين, في ميدان

القصر الملكي, وفي بلاط الملك, وفي قلبه الكبير الذي هده الحزن، وتغلغلت في أطوائه المرارة والحسرات.

ومضى «الروح العظيم»، ومضت زوجه نفرتيتي... ولكن العالم بقى مشغولاً بها في هذا الزمان, حيث شغل عن بعلها العاثر الجد!

ولكنها سطوة الجمال, وإن كانت في تمثال ومن هذه السطوة التي لا تقاوم, يستمد اسم «نفرتيتي» سنده في تتويج صفحات هذا الكتاب الذي يتناول الملكة الفاتنة من حيث هي قطب الرحى في معركة الروح، والحق، والعدل، والخير, تلك المعركة التي يعز نظيرها في التاريخ، والتي رفع لواءها زوجها: «اخناتون».

وفي تواضع الزاهدين, وتضحية الشهداء والصديقين, يتوارى الملك الناسك؛ ليترك الصدارة للؤلؤة قلبه, وريحانة بيته, «نفرتيتي».

ولئن اتخذ هذا الكتاب من جناح الخيال معراجًا, فليس إلى غير حقائق التاريخ عروجه, فكل مافيه مما أثبته العلم, أو مما يثبته العقل وإن لم يرد عنه في الخبر المتواتر ذكر.

فهو صورة حياة امرأة, وهو صورة حياة ملك قديس وروح عظيم, وصورة حياة شعب ناهض قديم

صوفي عبد الله

مصرالجديدة

بين عالمين في محبس الزمن

قلت لصاحبي ونحن في طريقنا في ذلك الصباح الصائف: ما أشد ولع الإنسان بالسجون والمحابس, وإن أبدى نفوره منها!

فسألني في هدوء لا يخلو من تهكم خفي: «وكيف كان ذلك؟»

فقلت: «زعموا أن الإنسان ولد حرًا, وفطر على الحرية، ونراه إذا عاقب أهدر حرية من يعاقبهوذلك مفهوم، ولكنه أيضًا لا يستغنى عن استخدام الحبس والتقييد في كل غرض من أغراضه؛ لفائدة عقله وقلبه»

فابتسم صاحبي وقال: «وأراني مرة أخرى أسألك: وكيف كان ذلك؟»

– زعموا أن الحب هو أوفى نعم الله على الإنسان, وقد يفوق نعمة الحرية في القيمة ويرجحها أيما رجحان، وهذا الحب أقوى القيود التي تربط الإنسان.. أفليس هذا جمعًا بين النعمة والنقمة, وبين الحبس والمتاع؟

– هو والله كذلك!

– وكلمة «العقل» نفسها, أليست مشتقة من «العقال», وهو القيد يربط به الشيء فيقيد ويحبس عن الحركة؟

– بلى! فالتزام الحدود, وحبس كل شيء في حد لا يعدوه هو شرط الحياة المتزنة والتفكير السليم على السواء.

– وهذا ما عنيته حين عجبت لولع الإنسان بالسجون والمحابس وإن

أبدى نفوره منها... ورحم الله «رهين المحبسين» أبا العلاء.

– ومن أحق بالغفران من صاحب «رسالة الغفران»؟!.. ولكن بم استحق عندك الترحم في هذا الأوان؟

– بما أقر به على نفسه حين قال:

وأعجب مني كيف أخطئ دائما   على أنني من أعرف الناس بالناس!

فكأنه والله كان يشير إلى زعمه أن:

أمس الذي مر عـــــلى قربه   يعـــــجز أهل الأرض عـن رده

– أترينهم لا يعجزون عن رد «أمس الذي مر على قربه»؟

– عفوك.. هانحنقد بلغنا غايتنا فادخل تر...

– وماذا أرى؟.. إنه «المتحف المصري»...

– وهل تريد محبساً للزمن أكبر من هذا المحبس,يرد فيه « أهل الأرض» أمس البعيد, فإذا به حاضر مشهود؟..

أليس هذا ما غاب عن أبي العلاء؟

فابتسم صاحبي وهو يتقدم من الباب الكبير ودخلنا مع الداخلين.

جناح الذهب

وكانت وجهتنا هذه المرة ذلك القسم من الطابق العلوي, الذي جعل للأسرة الثامنة عشر... أزهى عصور الفراعنة من الوجهة الأثرية, ومن حيث الترف والنعيم, واستقرار الحضارة، وتوطد أركان الدولة على العزة,

وتمتعها بثمار النصر ونعم السلام.

وأن خطوة واحدة داخل ذلك الجناح تكفي لمعرفة السر في تسميته: «العصر الذهبي» في تاريخ الفراعنة.. فهو حقًا عصر الذهب: كل شيء فيه فاخر ثمين, وحلي الذهب، وأقنعة المومياء من النضار الخالص, وما من صغيرة أو كبيرة إلا وهي تنم عن ثراء عريض وغنى لا حصر له...

والناس قد درجوا –العامة منهم والخاصة– على الافتتان بالثراء, والانبهار برنين الذهب ولمعانه الأخاذ.. فحيثما كثر الذهب وتدفق في مجارى الترف والبذخ, كان ذلك العصر في وهمهم أسنى العصور, وأولاها بالتهليل والتكبير.

ولكن هل عصر الذهب هو العصر الذهبي حقًا؟ هل كثرة الذهب فيه إطلاقا دليل قاطع على الرخاء العام، والنعمة السابغة الشاملة؟

ألسنا نرى اليوم الذهب وقد كثر في الأسواق, فلم ييسر للناس الأرزاق, بل ضاق الأمر حتى كاد لا يطاق؟.

فمن الالتزام بالحق والمنطق الدقيق, ألا ننزلق مع «ذلاقة اللسان» فنقول أنه «العصر الذهبي»؛ لأنه «عصر الذهب»... ويحسن بنا ألا ننسى تجربة الإنسان من أقدم الأزمان لهذا الأصفر الرنان, فقد كان على الدوام خادمًا نافعًا, وسيدًا ملعونًا!

وربة التاج؟

وناهيك بكنوز توت عنخ آمون, التي كان أكثرها من قبل لأخناتون..

فنزع اسمه من فوقها –أو طمس–؛ لينقش اسم الملك الشاب, إمعانًا في النكاية ومحو آثار الإنقلاب.

وجعلت أتأمل تلك الصور الصغيرة التي تمثل فرعون مصر، وزوجه، وبناتهما الصغار في كافة المناسبات.. صور ناطقة, تكاد روعة ألوانها وخطوطها أن تنبض بالحياة.

أي وربي! لولا حواجز الزجاج لتلمست بيدي تلك الصور, فإن في العقل لشكًا أن تكون أكثر من رسوم على الأحجار...

وأخذتني تلك الصور العائلية, وما فيها من نفح الحب، والرحمة، والحنان.. فأذكرتني سائق عربة الجر الذي نراه اليوم يضع ولده الذي لا يجاوز طوله الشبر على ركبتيه، ويأبى ألا أن يمسك فتاه عنان الحصان!

ولكن طغى على هذا الشعور؛ شعور بالغبطة لتلك المرأة, زوج فرعون.. فهي أول ملكة تلزم زوجها الفرعون في جميع الطقوس، والمشاهد، والرسوم. وليس لذلك أصل عميق في الطبيعة الشعبية عند المصريين إلى يومنا هذا.. ودون أن أدري ألفيت نفسي أهتف في إعجاب وحسد:

– إيه «نفرتيتي!» لقد أوتيت ما لم يتهيأ لأحد من قبلك ولا من بعدك!

ثم سألت مرافقنا العالم الأثري, حين لم أجد مومياءها بين تلك المخلفات العظام:

– ولكن أين ربة التاج؟ أين شمس ذلك السلطان؟

فقال الرجل: «من يدري؟.. لم يعثر لجثتها على أثر, كما لم يعثر لزوجها على قبر».

وتلفّت ألقي على كل تلك التحف نظرة أخرى, وقد انقلبت غبطتي لصاحبتها رثاء واشفاقًا..

وكأنما أدرك الرجل بعض ما في نفسي, فاستطرد يقول:

– لقد لازمنا سوء الحظ حقًا في شأن نفرتيتي, فإذا كان فقدان مقبرتها أمرًا يعلل بفعل الزمن, فبماذا نعلل ضياع تمثالها من أيدينا, ليزدان به متحف برلين؟!

– لا أدري بماذا نعلله, ولكن لابد له من علة على كل حال.

– طبعًا.. ولكنها علة لا تسر, ويكتنفها الخزي من أكثر من جانب واحد، فقد كشف ذلك التمثال البديع عالم أثري ألماني، والرجل يعلم أن قانون الآثار المصري يحتم احتفاظ متحف القاهرة بالقطع التي لا نظير لها, وما له نظير يقسم مناصفة، وهو يعلم أيضًا أن التحفة التي عثر عليها لا نظير لها في كمال الفن, ودقة الصناعة, وأهمية الدلالة التاريخية.

فهي أكمل وأجمل تمثال من ذلك العصر, عصر الذهب والترف، فسولت له نفسه أن يغطي التمثال الجميل الرائع التلوين بمادة عازلة من القصدير –كذلك الذي تغطى به قطع الشوكولاتة– ثم يجعل حوله الجص من كل جانب, بحيث يبدو شيئاً منفراً لا معنى له ولا لون ولا طعم...

فجازت الحيلة, وخرجت التحفة الفريدة من الديار, فتخطت البحار إلى برلين، وهناك جلوها للناظرين من غشاوتها المموهة, وابتنوا لها –اعتزازًا بها– بهوًا خاصًا على الطراز الفرعوني.

وهكذا حظيت برلين بذلك الذخر الثمين, وخلت مقاصير متحفنا من ربة ذلك الملك الباذخ جسمًا وتمثالاً...

الروح الحائر:

وانتصف النهار.. وآن لي أن أرحل عن المتحف, وأن أبرح «جناح الذهب» فيه, ولا زالت مأساة نفرتيتي تداعب وجداني، وتأخذ على أسباب الهدوء، فكل هذا النعيم كان ملك يديها, وقلب زوجها كذلك كان حانيًا عليها، صادق الحب لها, وتلك نعمة أندر من الملك، والجاه العريض, فطالما عز القلب الخالص الود على ذوي التيجان والعروش، أما هي فكان لها هذا وذاك جميعًا. فكيف غربت تلكم الشمس, وكيف انتهت إلى المنفى والتشريد جسمًا وتمثالاً؟

وأغمضت عيني للنوم حين بلغت مقامي ممتلئة النفس بما شهدت, وبما استثارته المشاهدة في نفسي من ذلك القدر الذي رصد لربة التاجين, صاحبة الجمال والجلال «نفرتيتي».. حتى لقد تمنيت أنني رأيتها رأي العين, وصحبتها صحبة ألفة وارتفاع كلفة, كي أعرف الحياة كما كانت في «عصر الذهب» وأنفذ من وراء هالة الزمان السحرية إلى قلب الإنسان النابض في كل زمان بالآمال، والأفراح، والأشجان...

وشاقني أكثر من هذا, وأنا أتهيأ للنعاس بعد وجبة عجلى, أن أعرف

حال الأمة في ذلك الزمن الفريد, الذي رفع لواء الثورة فيه رب الحكم ووليّ الدنيا والدين, فخذله من انتصر لهم, وعفت آثاره, وعفت آثار زوجه نفرتيتي معه, وصار إلى ذمة التاريخ ذلك البصيص الفذ الذي أومض ثم خفا وشيكًا، وقد اجتمعت عليه أهوية الأهواء من كل حدب وصوب...

وقلت في نفسي ما قال أبو العلاء:

كـــم وعـــظ الواعظـــون منـــا   وجـــــاءت الأرض أنبيـــــاء

وذهبـــــوا, والــــبلاء باقٍ   ولم يـــزل داؤهـــا العيـــاء

حكـــم جـــرى للمليـــك فينـــا   ونحـــن في الأصـــل أغبيـــاء!

ثم غفوت.. ولا أدري كم من الزمن غفوت, فإذا الباب يفتح في غير صوت, ثم يدخل علي شبح ملتحف بالصمت, تحوطه المهابة وهيبة السمت, لم أتبينه بادئ الأمر في عتمة المخدع, حتى اقترب مني فصار على قيد خطوات أربع، فإذا رأس ولا ساق, تمشي في الهواء، أو هي تسبح فيه وئيدا.

وكدت أصيح مستنجدة, فإذا الرأس يكتمل له عنقطويل, وصدر نحيل, وبطن متهدل, ثم ساقان فيهما نعلان, وعلى تلك المرأة غلالة من نسيج رقيق تشي بأكثر مما تخفي.. وفوق رأسها ذلك التاج المستطيل, وفي نظرتها ذلك السحر الجميل...

وقبل أن أفتح فمي لأهتف مأخوذة بما أرى:

– نفرتيتي وايم الحق!

كانت الملكة قد سبقتني إلى الكلام, مرددة شطر البيت الأخير مما تمثلت به:«ونحن في الأصل أغبياء»...

فحملقت فيها لا أدري ما أقول, فاستأنفت كلامها في تأنيب كالتدليل:

– أجل أغبياء! فقد كنا أغبياء حين حسبنا الأرواح لا تعيش إلا في الأجسام, وفي أجسامها التي سكنتها في حال الدنيا على وجه الإلزام... وهأنذي أبعث من جديد لأظهرك على فساد ذلك الرأي...

وأحسبني كنت أتفحصها مبهورة بشكل ظاهر, فابتسمت وسألتني: «هل أعجبك شكلي؟»

وسكتت لحظة, واستطردت: «لا أظن! بل أكبر ظني انك شعرت بخيبة كبرى.. فإن الذين فتنهم تمثال رأسي وعنقي يخيب أملهم إذا رأوا ما في سائر جسمي من اضطراب في الهندسة وتنافر في التكوين»

– عفوك مولاتي, ولكن...

– لا لكن هناك! تلك هي الحقيقة, ولا أكتمك انني ما كنت أجهر بها الآن إلا وقد فارقنا عالم القشور، والغرور، وتخلصنا من ذلك الجسد بما فيه من قبيح ومليح.. أما ونحن في الدنيا, فقد سرني أن يصنع الصانع تمثالي خالياً من ذلك العيب الظاهر.. أم تراك تصدقين طرفة عين أن يكون جسمي جميلاً ممشوقاً ثم أتردد في تخليده للناظرين؟ إنني ملكة النيل, وسيدة الخافقين, ولكنني امرأة أولاً... ولا تزهد امرأة إلا فيما لا زهو فيه.

وابتسمت لهذه الشهادة الخالصة, التي يعزى الفضل فيها إلى زوال الغرض وانتفاء الخسارة, بعد ختام الحساب وانقضاء اللبانة.. وبدا على شيء من الدهش والتساؤل, فسألتني أن أفصح عما أضمر, فقلت وأنا أغالب الحرج: «إنه لشرف عظيم يا مولاتي...»

فقاطعتني, وقد فهمت بقية المقال:

– ولكنك تعجبين، كيف علمت أنك تشتهين لقائي؟!...

– هو ذاك يا مولاتي...

– لقد اشتقت لقائي, وكان شوقك صادقًا, فلمس روحي.. فجئت إليك خفية على جناح من الشوق المستطار.

– ولكن يا مولاتي, ذلك يبين لي كيف جئت, وليس على الأرواح عزيز, بيد أنه لا يظهر لي كيف علمت ما في نفسي من شوق شديد؟

– وهل ذلك أصعب من المثول من عالم إلى عالم, والشخوص من دنيا الأرواح إلى دنيا الأشباح؟ أما سمعت يا بنية بالمذياع؟ بل إني أراه إلى جوار فراشك...

– أجل. هذا مذياعي... ولكن..

– ولكن ماذا؟.. إنك تستخدمينه ولا تعجبين من انتقال الصوت آلاف الأميال, ومن انفعال الحديد الأصم بموجات الأثير... فكيف تعجبين بعد هذا لما هو أقرب إلى البداهة السديدة, من انفعال روح بروح وإن بَعد المدى في زمان أو مكان؟..

– عفوك يا جدتاه!.. إنما نحن أطفال الحياة, ومهما بلغت حدة عقولنا, لم نتخلص من رق العادة، فنحن لا نستغرب المألوف وإن بدا في ضوء العقل عجيبًا, ونستغرب ما لا غرابة فيه إذا لم يكن مألوفًا...

– لا عليك!.. فقد كنا مثلكم في ذلك الرق، ولم نكن خيرًا منكم أبناء هذا الزمان،

وتنهدت وسكت, كأني أكتم حسرة شديدة, فقالت:

– فيما هذا؟ ألم تريدي لقائي, وهأنذى؟

– مولاتي! لقد صنعت لي ما لا طاقة لي بشكره،ولكني اشتهيت أن أعيش في زمنك, لا أن تعيشي أنت في زمني.

– وبعد؟ ما الذي يحزنك إذن؟

– إنني لا أنال ما أشتهي, وإن كنت شاكرة لما نلت...

– ومن قال لك يا بنية أنك لا تنالين ما تشتهين؟

وكيف لي به؟ أنى لي أن أعيش في زمنك يا مولاتي, ودون ذلك سجن منيع من الزمن, إن قرونًا طوالاً تفصلنا... فأين الفرار من ذلك الأسر, ليتسنى لي أن أعيش في عصرك، وأجلو الغامض من سرك؟

هو علي هين

فابتسمت الملكة, وبدا جلال الملك شيئًا ضئيلاً إلى جانب ما يضفيه العلم النافذ إلى ما وراء الأستار من هيبة طاغية, ثم قالت:

– لا عليك! هو علي هين...

– أعلم هذا! فأين آماد الزمان، وأبعاد المكان من الأرواح التي تخطت ذلك العالم الفاني؟.. ولكنه على أنا الفانية ليس هينًا, بل هو على التحقيق ليس ممكنًا.

فابتسمت ابتسامة عريضة, كما يضحك الشيخ من طفل غرير, وقالت:

– على التحقيق؟.. وما تدرين أنت, بل ما تدرون أجمعين من أمور الوجود على التحقيق؟ دعي عنك هذه الخزعبلات.. وتعالي ألمس جبينك بيدي هذه...

ووضعت يدها فوق جبيني, ثم قالت لي: انظري في المرآة, فنظرت فلم أرى صورتي, وإن رأيت صورة كل ما في الحجرة, عدا هي وعداي.. فقالت وقد أضحكتها دهشتي:

– أنت الآن ترين وتسمعين, ولا يراك أحد ولا يسمعك.. وعلى جناح الأثير ستطيرين معي إلى عصر أبي, وعصري, ثم تعودين قبل انبلاج الصبح في دنيا العالمين.

وانطلقنا...

والد وما ولد

نسب مغموز

وفي أقل من لمح البرق الخاطف, كنت وإياها في مكان منعزل على شاطيء النيل.. وليس من حولنا ديار ولا نافخ نار، ولكني استشعرت أنسًا, ولم تخالجني الرهبة، ولم تخطر لي ببال، فنظرت حولي أتملى من جمال المكان, وقد خيل إلي أني رأيته من قبل..

ووضعت يدها على يدي, ثم قالت لي:

– نحن على أبواب طيبة, وقبل أن نهبطها ينبغي أن أقدم لك نفسي..

– عفواً ملكة النيل!.. ومن ذا يجهل نفرتيتي؟

– بل قولي: من ذا يعرفها؟ فليس أقرب وألصق بالمرء من نفسه, وبرغم ذلك فإنه يسلخ العمر الطويل ثم تبدر منه البادرة، فإذا هو يستغربها وكأنه لم يكن يعرف نفسه على هذا الغرار من قبل... فكيف وقد عبر الزمن, وصارت الدولة غير الدولة, والأوضاع غير الأوضاع؟

– ذلك حق, ولست أدري كيف نسيته؟

– أنا بنت الأكرمين: أبي أمنحتب الثالث, وأمي الملكة تي.. وكلاهما ذو مكان رفيع في تاريخ هذا الوادي العظيم.

– وهذا شأن لا يجهله أحد يا بنت أمنحتب, أو يا بنت أمينوفيس,

على رواية فريق من أصحاب التاريخ القديم.

– ولكن هذا ليس هو الحق كل الحق... فمن أمنحتب الثالث؟

– هو ابن تحتمس الرابع حفيد تحتمس الثالث بطل مجدو, وفاتح فلسطين, وقاهر الشرق, وصاحب الحرب الخاطفة, صاعقة الحروب الذي لا يشق له غبار.

فاطمأنت نفرتيتي في اكبار, وقالت:

– كذلك كان تحتمس الرابع, وأكرم به من جد مجيد, لو أنه كان جدي حقًا وصدقًا!..

– وي!

– وفيم العجب؟! إن أبي ينسب إلى تحتمس في رواية تسجلها الآثار والجدران, برسوم ناطقة بأجلى بيان, ولكنها أسطورة ابتدعها الكهان, ليوطئوا العرش لأبي من بعد وفاة تحتمس الرابع في ميعة الصبا, غير مجاوز ستة وعشرين سنة!

ابن الإله!

فارتسم على وجهي مصداق ما في نفسي من العجب, وقلت:

– إن هذا والله لحديث خطير, إذا جاز لي أن أستعمل لغة الصحافة في هذا الزمان!. فكيف يقحم على العرش –وأي عرش؟! عرش الفراعنة سلالة الآلهة, أوطد العروش في العالم القديم– رجل ليس من نسل الملك, وينسب إلى ولد الملك, والعهد في القصر الملكي في ذلك الزمان أن

حركاته تحصى وترصد, وأن أبناء فرعون ليسوا هملا يجهلون, حتى يبرز إلى الوجود دعي ليس منهم فيصدقه الناس...

فابتسمت نفرتيتي ابتسامة الإشفاق, ثم قالت:

– أجل, فرعون صاحب أوطد العروش, ونسل الآلهة الميامين؛ ولأنه نسل الآلهة الميامين, وخليفتهم على الوادي المبارك, جاز لوالدي أن يرتقي ذلك المرتقى العجيب.

فقلت وأنا بين الإنكار والتصديق:

– إنها الجهالة العمياء والغي.. فقد صارت لآمون بعد طرد الهكسوس دولة تطاول الدولة, وأغدق على كهنته الهبات والأموال، ولاسيما بعد اتساع رقعة الملك, حتى صار لهم سلطان المال إلى جانب سلطان الدين, واكتملت لهم أدوات السيطرة جميعًا, فطغوا وبغوا, وطمحوا إلى السلطان السافر.. وتبعهم العامة إيمانًا بالشعوذة, وتبعهم غيرهم من كبار القوم ابتغاء المنفعة, بعد أن صارت لهم خير الضياع والأموال في مصر والشرق كافة... وليس سلطان المال الطائل بالشيء الذي يحتاج إلى بيان في زمان – كزمانكم– مست فيه الفلسفة الاجتماعية كل جيب, وكل معدة...

– أي والله.. إن هذا لحق!

– فهل كان هذا حريًّا أن يرضي فتى غض الإهاب, قوي الأصلاب, كتحتمس الثالث؟ لا وحق مجدو، وقادش، ويافا، والفتوح الغر في الشام والفراتين!.. فنام هؤلاء الكهان عن الفتنة حتى ذهب تحتمس الثالث, وذهب من بعده ابنه أمنحتب الثاني(أو أمينوفيس الثاني) الذي كان سر

أبيه فتوة, وقوة, ومضاء, وجاء من بعدهما تحتمس الرابع الشاب الألمعي المتوثب إلى العزة.. وقد أشرب كراهة كهان آمون, وما فيهم من نزعات دنيوية تخرج بهم، وبالدين عن نصاب الحق.. فمال إلى الدين العريق, دين منف, أو مدينة الشمس.. أقرب الأديان القديمة إلى التجريد، وأبعدها عن الدنيويات، والتجسيم، والوثنية وخزعبلاتها... فاجتمع في مسلك تحتمس الرابع دافعان متباعدان: هما الغيرة على السلطان, وكراهية الطغيان من جانب كهان آمون الذين يعمدون إلى الدجل والادعاء مع الغوغاء, ويلوحون بالأرزاق لمن لا يجدي معه الدجل والادعاء... بيد أن الفتى كان أطرى عودًا من الصمود لذلك الإعصار الجائح، أو الأخطبوط المنتشر في كل مكان.. ولم يلبث الموت أن عاجله في السادسة والعشرين من عمره، فانتهز كهان آمون الفرصة ليقضوا على تلك الشجرة المعادية من الفراعنة.. ولاسيما بنو الملك الراحل صغار السن لا حول لهم ولا طول.

– ولماذا لم يرتق العرش كبير الكهان؟ أزهدًا فيه أم سياسة؟

– بل سياسة.. فإن الناس على كل حال لا يقرون بالملك إلا لوارث شرعي.. فلماذا لا يصنع الكهان وارثًا شرعيًا؟. وقد كان! فصنعوا من أبي وارثًا شرعيًا... جاءوا به, وكان من أبناء الأسرة في فروعها البعيدة, كما يأتي المستعمرون في الزمن الحاضر بأمير كان لا يحلم بالملك، فيولونه لكي يدين لهم بالفضل ما عاش...

– ما أصدق من قال: «لا جديد تحت الشمس!»

– لا جديد مطلقًا.. وفي السياسة على وجه الخصوص.

ولكن كيف يولونه الملك وهو ليس من أبناء الملك, وللملك ولد؟..
لا سبيل إلى ذلك إلا أن ينسبوه إليه، ولكن أنَّى لهم هذا وأولاد الملك معروفون, سواء أنجبهم من الزوجات أو من الحظايا؟ لا مفر إذن من الاستعانة بالإله نفسه لحل ذلك الإشكال.. ففي زماننا أيضًا كان الآلهة «ممسحة» لأهواء البشر وأخطائهم، فأذاعوا أن أم أبي قد حملت به من الإله آمون, الذي ظهر لها في صورة تحتمس الرابع, فاقترب منها ومسها كما يمس الرجال النساء, وحملها تلك النطفة المقدسة, إيذانًا بحقها في عرش مصر بفعل مباشر من الإله, صاحب الوادي الأصيل.. وتلك الرواية مرسومة بجميع تفاصيلها على آثار الوالد.

– وكيف صدق الناس؟

– لقد صدقوا؛ لأن الجهل أعمى, أو لأن التواطؤ مع كهنة آمون كان أنفع وأجدى عند طلاب المنفعة.. وهكذا صار أبي تحتمس الرابع بأمر إلهيدون أن تكون لتحتمس الرابع يد في ذلك الإنجاب, فهو لم يكن يكبر أبي بكثير من الأعوام.. وهكذا يرتفع صاحب النسب المغموز فيصبح ابن الإله!

بقية التدبير

فقلت مأخوذة بما سمعت:

– لقد كانت العادة المتبعة أن يتزوج الملك الجديد ابنة سلفه, ولو كانت أخته...

– كذلك كان.. فإن للمرأة في دولة الفراعنة حق الميراث مثل الولد,

وقبل الولد في بعض الأحيان... مثل وراثة الأرض، والعقار، والبيوت المأهولة, كي يضطر أبناء البيت إلى الزواج من بناته ليحتفظوا بتراث الآباء, وبذلك يبقى الدم غير مشوب, ويظل رباط الأسرة وثيقًا, وتظل للبنات المكانة، والكرامة من بعد أن يتزوجن بما حملن إلى بيت الزوجية من مال...

– ذلك ما علمته يا مولاتي عن عهدكم الزاهر, ولا زالت أسرنا في الريف والصعيد تؤثر زواج أبناء العمومة, بعد أن حرم الدين زواج الأشقاء.

– وكان الملك الجديد يرث القصر بحريمه من السرارى والزوجات، ولكن أبي لم يتزوج بنتًا من بنات الملك, ولم يبن بأرملة من أرامله...

– أتقولين أرامله, بصيغة الجمع؟ فهل كان التعدد مباحًا؟

– للملوك وخاصة الخاصة من الناس.. أما سواد الشعب فكان مقيمًا على الزواج بواحدة... وكذلك كثير من العلية.

– ولماذا لم يتزوج الملك واحدة من هاتيك؟ أم كان الأمر اختيارًا لا إلزام فيه؟

– بل هو في حكم الملزم.. فليس في العالم القديم كله حياة مقيدة بالمراسم، والتقاليد،والأصول المرعية كحياة فرعون مصر، لا فرق في ذلك بين حياته الخاصة وحياته العامة؛ لأن الفرعون كل لا يتجزأ، و«كينونة» عامة تملكها واجباتها ملكًا خالصًا, ولا مناص من ذلك... وإلى هذا يعزى السبب في احتياج الكهان إلى أسطورة لتبرير ارتقاء أبي عرش الفراعنة.

– هي الثورة إذن... أم هو الحب والغرام؟

– بل هي بقية التدبير, التقت بهوى قلب شاب.

– وكيف كان ذلك؟

– كان مراد الكهنة اقصاء بيت تحتمس الرئيسي عن العرش, فأقصوا البنين, وكان إقصاء البنات هو تمام التدبير.

– ولكن كيف يتم ذلك, فأكبر الظن أنه يحتاج إلى تدخل جديد من آمون؟!.

– لا عليك!.. فإن الذي يتدخل «آمون» لإنجابه من صلبه يحق له أن يواجه شعبه بما يشاء في أمر نسله وصهره... وكان أبي –وهو أمير– دائم الاتصال بكهان من سدنة آمون؛لأنه كان متيمًابابنة أحدهم «يوا» – ولم يكن من كبارهم– وكانت زوجته «تيو» وصيفة من وصيفات القصر. فلم يكن اختيار أبي اعتباطًا, بل لتدلهه بابنة الكاهن, وصلته بالكهنة صلة تحمل على الاعتقاد في طواعيته لهم.. فما استدار العام حتى تم التدبير المقدر, وتزوج أبي من الملكة «تي», فرفع مقامها فوق كل مقام, وجعلها الرسمية وصاحبة الصدارة والشورى في كل أمر، وجعل والدها على رأس رجال حاشيته, ورفع أمها إلى مقام الأميرات, فصارت من «الحريم الملكي».. لا بمعنى أنها زوجة, بل بمعنى أنها من النساء أعضاء بيت فرعون المباشر, مثل الأم، والأخت، وما إلى ذلك...

– مرحى! إن في عروقك إذن دماء الكهان من سدنة آمون؟

– ما في ذلك شك! بل أنه أثبت من نسبة دمي إلى تحتمس.. ولم يكن زواج أبي شيئًا عاديًا, فهكذا يتزوج أبناء الآلهة! بل جعل من ذلك حادثًا قوميًا, يسجل في الآثار، وتقام له نصب التذكار.

تركة حافلة:

فقلت:

– لا أدري يا مولاتي أيها أروع: مكانك في التارخ, وفي ثبت الجميلات الخالدات, أم جرأتك في الحق على نفسك, وعلى آبائك الميامين؟

فزمت شفتيها في هدوء الخالدين, الذين ودعوا هوى الدنيا, وأجابت:

– لا يغرنك مني مثل هذا يا بنية.. إنما هي حكمة لا فضل لنا فيها، لأنها لم تظهر إلا بعد فوات أوان الأهواء, وانقطاع اللبانات... ولا فضيلة إلا حيثما تكون مغالبة هوى وصراع شهوة!

– وهل أفهم مما قالت مولاتي عن والدها امنتحتب الثالث ووالدتها, أن العصر كان عصر انحلال، ودولة تنحدر إلى الزوال؟

– أجل, تفهمين ذلك, وتفهمين عن حق.

– ولكن الدول يا مولاتي لا تزول بين عشية وضحاها، ولم يكن مرتقى والدك العرش إلا كالغد القريب بالنسبة لعهد الملك تحتمس الثالث.. صاحب قادش, ومجدو, ووادي عرة, وصاحب الملك الذي لم يهيأ لأحد من قبله في الخافقين.. فكيف انتقل الحال إلى نقيضه في طرفة

عين ؟

– هذا من ذاك!..

– لم أفهم.

– بل ستفهمين عن يقين.. أتعرفين ترهل الشيخوخة المترفة بعد الشباب الكادح؟.. أتعرفين نابليون «سنت هيلانة» بعد نابليون «أوسترلتز» و «ينا»؟ بل أتعرفين قوله عز من قائل: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها»؟ وهل تعرفين مذهب فيلسوفكم الاجتماعي الحصيف ابن خلدون, عن مراحل الدولة وأطوارها من البداوة إلى الحضارة والرخاوة؟

– أعرفها مولاتي ولا أنساها.

– لقد عرفت إذن كيف سرى الانحلال إلى هذا البنيان المشيد, ونخر السوس في قوائم ذلك المجد الوطيد... فقد جنى خلفاء تحتمس الثالث ثمار نصره وجهده يانعًا جنيًا, وأغناه بأسه السابق عن جهاد لاحق, فإذا طاعة شاملة, وسلم دائم, وذهب يتدفق, ونعيم مقيم... فأثرى التجار, وتضاعفت الأموال, واستنام الناس للترف, كما يستنيم الشيخ أو الكهل للثروة الهابطة, فيأكل حتى يتخم, ويشرب حتى يثمل, ويكون همه في اللذة الصارخة... فهل بعد ذلك تهون عليه تضحية في سبيل قيمة خلقية, أو تغلبه النخوة في سبيل حق مهدر, وهل يكون في مثل ذلك المجتمع مكان لرعاية الصالح العام قبل المنفعة الخاصة؟

– كلا وربي.

– صدقت! وهكذا تنحل الدول, ويصبح للأبهة المحل الأول, وتكثر المفاسد, ويباع كل شيء باللذة العاجلة, حتى الذمم, وحتى رجولة الرجال, ويكون التفاخر بالبذخ والمظاهر هو قانون الجماعة...

– بئس هذا.

– أجل.. هذا هو أس الفساد.

– هو فساد الأمة إذن, لا فساد الحاكمين؟

– ومتى انفصل هذان, إلا في ذهن كليل وعقل هزيل؟ الحاكمون خليفة المحكومين, وصنع أيديهم, وصدق القائل الكريم «كما تكونوا يول عليكم».

– أبوك أمنحتب الثالث إذن مظلوم.. فقد تلقى هذه التركة عن تحتمس العظيم.

– أجل, تلقاها وتلقتها مصر, سمًا قاتلاً يكمن في أكاليل النصر! وكذلك كل نصر.. ففي المزيد من النفع ضرر؛ لأن العالم كله شيء واحد, وليس في استئثار عضو من الجسم بمعظم الدم خير له ولا للجسم كله, وإن توهم أنه الظافر المحدود حمقًا منه وغفلة... ولكن الإنسان ظلوم جهول!

أعقاب البيوت:

فتمهلت قليلاً, ثم عقبت على كلام الملكة نفرتيتيفي استحياء:

– مولاتي.. في النفس خاطر عن لي.

– هاتيه ولا تكتمي.

– إنها ظاهرة مشاهدة في هذا الزمان, وأحسبها قديمة قدم المجتمعات كافة, أن تكون أعقاب البيوت دون بواكيرها في البأس والفتوة.. فالأوائل يبنون ويشيدون, ثم تأتي الأعقاب فلا تجد زيادة لمستزيد, فتستنيم إلى ما يفيء عليهم عمل الجدود...

– هو ذلك.. ولكن نزيد عليه شيئًا, أنتم أهل هذا الزمان في مصر والشرق الأوسط أولى أن تلحظوه, وتولوه العناية كل العناية, وهو وبال الاستعمار والفتح على المستعمر والفاتح وإن طال المدى: انظري أين دالت دولة روما القديمة, وكيف تطرق إليها الفساد باتساع الملك وكثرة الفيء!وانظري دولة الأكاسرة, ثم دولة العرب.. واعلمي واثقة أن هذا الداء بعينه هو الذي سيقوض كل مستعمر غاصب في هذا العصر.. ولكن الإنسان عجول بقدر ماهو جهول!

– صدقت مولاتي.

– فإذا كنت مستعدة لاستخلاص العبرة النزيهة الصادقة على هدى وبينة, ولست مما ينساقون وراء الألفاظ الضخمة والأهواء العمياء, فاعلمي أن كل مجد يقوم على الفتح والغلبة ينتهي بانهيار الفاتح الغالب, بما يدخل في نفسه من الغرور، وما يستنيم به إلى التنعم والترفه, فلا يكون همه أن يعطي الدنيا من نفسه, بل أن يجبيها لنفسه... وتلك هي الآفة الكبرى, التي لا تكاد تكون آفة سواها للدول والأفراد على السواء، فمن نظر إلى الدنيا على أنها لهو ساعة ومتاع حين, يأخذ منها ولا يبذل لها, كان

حريًّا أن يكون وجوده عالة على ركب الحياة, تخسر بوجوده؛ لأنه مستهلك مستنفد, ولا تخسر بموته؛ لأنه لم يكن عاملاً فاعلاً فيها بالخير والنماء.. فأيما كان هذا الشخص من الأبهة والمكان, فمثله في الدنيا كمثل البرغوث, ولو حلى بالذهب واكتسى الأرجوان.

– مولاتي! ما أحفل التاريخ بالبراغيث تحت أكاليل الغار ونصب التذكار!

– بل ما أكثرهم في البيوت والطرقات.. فمن ذا الذي يعيش لما يفعل للناس لا بما يسلبهم إياه؟أف لنا معشر البشر!

وكأنما أدركت الملكة أنها اندفعت في الحملة شيئاً ما, فأحبت أن تخفف عليَّ وقع الأمر, فاستطردت في صوت خفيض كالمعتذرة:

– لا عليكم أهل الدنيا.. فداؤنا داء عياء, ونحن كما قال حكيمكم «في الأصل أغبياء»، كذلك أنا يا بنية, وكذلك تكونون, فما أقل ما يتعلم الناسمن أطوار التاريخ وتجارب الأيام.. فلا تحسبي أنَّا كنا خيرًا منكم, وإنما كنت أتمنى أن تكونوا خيرًا منا بعد كل هذه الأجيال.

فابتسمت وقلت كالمازحة:

– وهل نسيت أننا أعقاب السلالة يا ذات الجلالة؟

فابتسمت الملكة ابتسامة جذابة, وقالت وهي تعرك أذني:

– ويحك! وهل نسيت يا بنية أننا نؤمن بالبعث وتجدد الحياة.. فلماذا لاتتجددون, ولماذا لا تبعث البلاد على أيديكم أعز نفرًا, وأوفر حكمة,

فتكون نعمة على الدنيا وبركة, وتسهم في رخاء البشرية وارتقائها؟

– آمين.

– ولقد ورث أبي التركة, فمضى في التيار.. حتى بلغت الأمور غايتها, ولكن بعد عهده, فكان هو الذي «استدان» من حساب المجد، وصلاح الأمور، والعدل، والحق، ولكنه لم يقم بالسداد, ولم يطالب به في حياته.

– كذلك نحن في هذه الأزمان الأخيرة, بل وفي جميع الأزمان, الآباء يأكلون الحصرم, والأبناء يضرسون.

تبعات الملك

الواجب الأول

وشردت الملكة ببصرها شيئًا ما, ثم عادت تقول:

– ولكن لا تظني يا بنية أن الملك في عالمنا القديم, في هذا الوادي الكريم, كان لهوًا وزهوًا, وحكمًا هو التحكم, والتماس المغنم... كلا! وإنما هي تبعات جسام, وعبء من عرفه لم يغبط عليه حامله ولو كان في مقام الآلهة المعبودة.

– ولكن يا مولاتي, ليست كل التبعات سواء عند الإنسان الواحد, وهي ليست في مجموعها سواء عند الأجيال من الناس.

– إلا تبعات فرعون مصر! فقد حددت تحديدا دقيقا, يعرف أولها من آخرها، فأولها على الإطلاق هو واجب فرعون نحو أصحاب الوادي الأصلاء, الذين يحكم هو باسمهم وبالوكالة عنهم, وهم آلهة وادي النيل.

– لكأني بفرعون أول من حكم بالحق الإلهي المقدس؟

– ولا مراء! فقد كان الأمر كله من قبل دينًا, وكان كله للآلهة.. فالآلهة في العالم القديم كانت مصدر للسلطات, أما اليوم فمصدر السلطات جميعها هي الأمة.

– مولاتي!.. أحسرة على هذا المال؟

– لا وربي!.. وإنما هي الحسرة على عالمنا القديم, فقد كنا ملوكًا مرهقين بالمسئولية دائمًا على قدر الحق والسلطة، أما اليوم.. فما أهون العبء, وقد صار الناس هم الملوك المسئولون عن ولاية أمرهم, وولاة أمرهم.

– ولكن مولاتي, أي شيء يستطيع فرعون أن يؤديه للآلهة, وما مظهر أدائه حقهم؟

– انظري حولك على ضفتي هذا النيل, تري الهياكل والمحاريب, وبيوت الأرباب والرباب.. تلك هي تحية ملوك مصر القديمة لآلهة مصر القديمة.. فكل فرعون يقدم –على قدر وفائه وتقواه– من تلك الصروح ما استطاع, وعليه فوق هذا أن يتعهد بناء السلف بالترميم والإصلاح والتعمير, حتى تظل بيوت الآلهة قائمة مزدهرة موسعًا عليها في الأرزاق, بما يوقف عليها من الأموال، والضياع، والهبات.

ذو الدارين:

فقلت للملكة:

– إن لأبيك أمنحتب الثالث, في ذلك, باعًا طويلاً, فهو من أبر الفراعنة بالأرباب.

– هذا صحيح, ولاسيما آمون.

فقلت كالمازحة:

– ولكن هل نعد بره بالإله آمون تقوى وتدينًا, أم برًا ومحاباة عائلية؟

أليس قد زعم للناس أنه ابن آمون, تراءى لأمه، وأودعه أحشاءها في صورة البشر؟

فابتسمت الملكة وقالت:

– هما الأمران معًا, فهي تقوى, وهي بر بنوي... ويرجح هذا الظن, أنه تخير تحية آمون على اعتبار أن الولد سر أبيه, فتخيل أن ما يطيب له سيطيب لأبيه.

وزادت ابتسامة الملكة الحسناء وهي تستطرد بعد لحظة:

– وكان أبي مولعًا بالنساء ولعًا شديدًا... فغير عجيب على هذا القياس أن يهتم بسعادة أبيه وإلهه آمون من هذه الزاوية بالذات.

فأخذتني الدهشة, وقلت في لهجة الإنكار:

– ما تقولين يا مولاتي؟ إن الأسطورة تنسب حمل والدة أبيك إلى فعل آمون, فهل ترى أن والدك العظيم كان يقدم إلى آمون «ضرات» لأمه من بنات الناس؟ إنها لخدعة أخرى باطنها سر رهيب... هو متاع فرعون بالنيابة عن آمون بهاتيك النساء.

فضحكت نفرتيتي, وقالت وهي تقرص خدي:

– وهل كان أبي بحاجة إلى هذه الخرافة، أو الأسطورة ليمتع نفسه بما يشاء من النساء؟ كلا!.. فالمتاع بالنساء لا يحتاج إلى هذا العناء الذي اضطر إليه في سبيل ارتقاء العرش.

– ماذا إذن كان يفعل لأبيه أو إلهه؟

– شيئًا يسيرًا جدًا لو تعلمين..فهو قد تصور أن أهم ما يشغل والده هو عرائسه, قياسًا على نفسه, فبنى له ديار الأعراس, ومنارة الحريم، ولاسيما لزوجته الكبرى المعبودة «موت», التي تضارع مكانتها في حريم آمون مكانة والدتي «تي» عند أبي، فجعل لها قصرًا في الكرنك بالغ الرونق والبهاء، وجعل لآمون زورقًا فاخرًا مغطى بالذهب الخالص ينتقل فيه كل عام من قصره الرسمي إلى معبد الأقصر حيث يفرغ لحريمه حينا.

– ما أظن تلك العادة ترجع إلى أيام والدك؟

– بل هي تسبقه طبعًا.. ولكن المهم أن أبي عنى بهذا كثيرًا, فرتب له الزورق, والقصر الذي يمتع فيه نفسه بلذة الهوى... أما المناسبة نفسها فقديمة جدًا, ولم يرتجلها الكهان اعتباطًا, بل في موسم الفيضان, في شهر «بابه» رمزًاإلى زواج النيل بأرض الوادي زواجًا يجني الناس منه الخصب والخير العميم... وقد افتن أبي في بناء القصر، فجعله واسع الأرجاء فسيح الرحاب, وزخرف كل موقع للعين فيه من السقف إلى الأرض إلى الجدران والعمد بروائع الفن الزخرفي الفرعوني, وعنى بتذهيب الأبواب, وأعلى برجه إلى عنان السماء. ولم يكفه هذا فجعل الطريق بين قصره الرسمي في الكرنك، وقصر الحريم في الأقصر شيئًا فذًا في تاريخ العمارة، فعلى الجانبين تماثيل سباع لها رؤوس كباش!.. السباع رمز القوة في النزال والنضال، والكباش رمز آمون نفسه؛ لأنها مضرب المثل في الخصب وقوة الأنسال. وبذلك تجمع تلك التماثيل بين القدرة على الدفاع, والقدرة على المتاع... فهي تحية بلغة ذلك الأوان وإن اختلف مدلولها باختلاف الزمان.

– يا لها من رموز, ويا لها من تحية!.

– تلك يا بنية أول واجبات الملك نحو الآلهة, وذلك بعض ما قام به أبي.. خصصته بالذكر لأنه أظهرها وأكثرها دلالة على تكوين طبعه،أما سائر واجبات فرعون فهي الحكم.

– هذا طبيعي يا مولاتي, ولكن كيف يحكم؟.. أنني لأعجب كيف يتسنى لحاكم فرد مثله أن يزن الأمور ويحكم التدبير, وكيف لا تؤدي بحكمته غواية السلطان وغروره؟!

– رويدك! فإن حكومة فرعون موضوع وهم طائش شاع في الناس بغير مبرر.. أجل إنه وكيل الآلهة على الوادي ولا شريك له في ذلك المقام السامي، ولكنه ليس حاكمًا مطلقًا.. كلا, بل هو على النقيض من ذلك.

فندت مني كلمة ساخرة قاطعت بها الملكة دون أن أنتبه لها:

– لعله كان ملكًا دستوريًا إذن؟

فنظرت إليَّ الملكة نظرة جد, وقالت بكل وقار وثقة:

– وكذلك كان فرعون فعلاً, فهو أول ملك دستوري في تاريخ العالم.

– وي! إن هذا لعجيب!... وعفوك إذا قلت أني لو لم أسمعه منك يا صاحبة الجلالة لما أعرته إهتماميوتصديقي.

لباب الناموس:

فقالت نفرتيتي في هدوء وأناة:

– أعيريني سمعك... وحاولي أن تتصوري الأموربالعقل لا على ضوء ما ملأ الناس به أذنك من الأخطاء والأوهام.

– إني مصغية.. فهاتي.

– ما معنى الدستور؟ إنه النظام الأساسي الذي تقوم عليه قوانين الدولة, فلا تكون ألعوبة لذي هوى... أليس كذلك؟

– بلى.. هو كذلك

– ولم تكن دولة عريقة كمصر خالية من ذلك القانون الأساسي الذي ينظم سياسة مصالح الأمة، وإنما يخطيء الناس فيحسبون أن مصر لم تكن بلداً دستورياً؛ لأنهم يخلطون بين النظام الدستوري إطلاقًا, والنظام الديموقراطي على وجه التحديد، فقد تكون الدولة دستورية ولكنها غير ديموقراطية.

– ما أصدق هذا يا مولاتي, وإن غفل عنه الناس.

– وغفل عنه شاعر منكم, فقال يعير فرعونًا من أسرتي قائلاً:

فؤاد أعز بالدستور دنيا وأعظم منك بالإسلام دينا

فأما الدستور, فلكم أن تفخروا أن مصر القديمة كانت على الدوام بلدًا دستوريًا, فلم يحكمها طاغية مطلق السلطان قط! وأما الإسلام يا بنيتي فأنعم به وأكرم.. ولكن ما ذنب فرعون؟ وهل كان عليه أن يعتنق الإسلام قبل بعثة نبي الإسلام؟

– مولاتي! إنه قول شاعر على مذهب القائلين: إن أعذب الشعر

أكذبه.. ولكني مشوقة إلى معرفة فحوى دستور مصر القديمة.

– ذلك يا بنيتي هو «الناموس». فالسلطة في مصر مشتقة من الدين.. وفرعون يحكم باسم الآلهة؛ لأنه وكيلهم أو من ذريتهم. والدين – ولاسيما الديانات القديمة– ينظم كل شيء في حياة الناس والجماعة بطقوس وعقائد لا سبيل إلى التحرر منها. ففرعون أول من يخضع لها, وبها يسود الناس.. وكل شيء في حياته الخاصة والعامة ترسمه له أوامر الدين ونواهيه.

– أفلا يقول: اقتلوا فلانًا, فيقتل... أو: أطلقوه, فيطلقونه؟

– يقول, ولكن لا اعتباطًا, بل بحسب الناموس، فالناموس ينظم وظائف الدولة وسلطاتها, ويفصل بين سلطة الإدارة أو التنفيذ, وسلطة القضاء.. وأما سلطة التشريع فذلك هو ناموس الآلهة الذي يتولاه الكهنة بالتفسير والتعديل حسب مقتضيات العصر.

في مصر نظام

– عجبًا.. ألم تكن أموال مصر كلها أموالاً خاصة لفرعون؟

– أين يذهب بك وهمك يا فتاة؟ أتظنين فرعون قاطع طريق يجمع المال غصبًا من الناس كما يتراءى له؟ كلا وأبيك! ففي مصر دولة ونظام, ونصيب معلوم من الأموال للآلهة ولبيت المال.. وهناك رجال أمن يقومون على النظام, وجباة يحاسبون على ما يجبون من الخلق حسابًا عسيرًا...

– لقد كان له وزراء إذن؟

– إن لم يكن لفرعون الوزراء, فلمن يكونون؟.. لقد كانت السياسة شيئًا عريقًا في مصر, فكان فيها طراز من رجال الدولة يعتمد عليهم فرعون، ويحترمهم، ويصغى لنصحهم، وسأقول لك خبرًا يدهشك حقًا.. إن إنجلترا تجعل وزير العدل، أو قاضي القضاة مقدمًا على جميع الوزراء, ومرتبه أكبر من مرتب رئيس الوزراء.

– هذا صحيح.

– إنهم مسبوقون في هذا.. فكذلك كان وزير العدل على عهد الفراعنة.

– مرحى! مرحى!

– وأكثر من هذا يا بنت هذا الزمان, هناك حكاية يتشدقون بها اليوم, هي «اللامركزية»

– أجل.

– وفي هذا أنتم أيضًا مسبوقون, مسبوقون بآلاف السنين! فكل والٍ في ولايته فرعون صغير, تتبعه سلطات قضائية، وإدارية، ومالية، وكهنوتية، ولكل ولاية مراسم إلهيهخاصة–وهي في مجموعها وجوهرها متقاربة– ومجلس شوراها الذي يرجع إليه الأمير في أمور الإقليم. وكانت تتبع المعابد الكبيرة مدارس يتعلم فيها الموظفون ناموس الدولة, وحقوق الناس، وحدود المعاملات, حتى تكونت مع الزمن «بيروقراطية» مصرية, وطبقة وسطى من الموظفين تطاول طبقة الأعيان...

وعندئذ غلبتني سليقة «المعابثة» فقلت مازحة:

– لم يبق يا مولاتي إلا أن تقولي أنكم عرفتم في زمانكم قانوننا الحديث: «من أين لك هذا؟»

وبكل جد ووقار قالت الملكة:

– وهذا أيضًا عرفناه بالتأكيد.. فكان المتهم بالاختلاس يسأل عن مصادر غناه, كما يسأل عن غنى ذوي قرباه، وامرأته، وبنيه.

– مولاتي.. لا أدري أي الشعورين يغلب على نفسي: شعور الفخر بالأجداد الميامين, أم شعور الخجل من الحاضر المتخلف.

– لا عليك.. فهناك شيء يحق لك، أن تفخري بأن زمانك لم يتخلف فيه عن زماني.

– اسعفيني به مولاتي.. ما هو؟

– ذلك يا بنية هو نظام القضاء المصري.. فقد كان دائماً في مصر قضاة, وقضاتكم اليوم جدرون بآبائهم الأولين على عهد الفراعين.

– إن قضاءنا قبس من شرع الله, ومن نظم الغربيين.

– وقضاؤنا نحن كان قبسًا من دولتنا الدستورية, لا فضل فيه لأحد علينا من العالمين... وإنه لعمرى لقضاء متين...

– زيديني بيانًايا جدتي يا ذات الجلال والجمال.

– أول ما يلفت النظر هو التقارب بين تقاليد قضائنا القديم، وتقاليد

قضائكم الحديث.. فالقضاة ورجال العدل مهما صغرت وظائفهم يعيشون دائمًا بمعزل عن الناس, وتحرم عليهم التجارة، وتبادل المجاملات والهدايا؛ لضمان الثقة في ضمائرهم, ولتمام النزاهة وكمال الهيبة. فالعدل أساس في الدين عندنا, والحساب والعقاب في الآخرة ركن أساسي من أركان الدين... كما يحرم على القضاة استغلال النفوذ, فلا يذهب أحدهم إلى السوق بنفسه مشتريًا حتى لا يحرج الناس فيبيعونه بالبخس تزلفًا أو خوفًا...

– إن هذا والله لغاية الكمال في تقاليد القضاء.

– ولا تحسبن عين فرعون وخاصته غافلة عن أحد.. فإذا ثبت تهمة على قاض أو رجل من رجال الضبط والتحقيق كان عقابها جدع الأنف, ليكون عبرة وسخرية بين العالمين.

– ذلك يا مولاتي فظيع.

– ولكنه في عين العدل ليس أفظع من الرشوة، وفساد الذمة، واستغلال النفوذ على حساب الضعفاء والمساكين.. فحماية هؤلاء أوجب على ولي الأمر من حماية أنوف خدام الدولة الخائنين الأمانات والعهود.. واستغلال ضعف الفقراء وفقرهم أشنع جريمة يقع فيها موظف عام.

– وهل كان ذلك مَرعيًا في شئون الرزق وجباية الأموال الأميرية؟

– ولا مراء.. فقد كان منصوصًا في التعليمات المالية على التنازل عن ثلثي الضرائب المتأخرة إذا كان المدير فقيرًا معسرًا.

– ليس بعد هذا عدل ولا رحمة.

سواسية كأسنان المشط

– بل خير من هذا يا بنت هذا الزمان أن الناس عندنا كانوا أمام القانون وإجراءات القضاء سواسية كأسنان المشط.

– حتى عِليَة القوم والخاصة منهم؟

– نعم حتى الأكابر والخاصة! ولو كانت فيهم بنت فرعون، أو زوجه، أو أخته.. فلا محكمة لهم خاصة, بل لا يطلب فرعون عقد المحكمة في مجلسه أو تحت رئاسته.. كما يحق له في جرائم الخيانة العظمى, وقد سلفت في التاريخ الفرعوني محاكمة قوم من بيت الملك بجرائم غير عامة، ولا تتعلق بنظام الدولة وأمنها, فجرت المحاكمة أمام القضاء العادي.

– مرحى.. مرحى..

– وحقوق الدفاع مكفولة كل الكفالة لكل متهم مهما كان جرمه.. ولكن الضرب الموجع كان من أدوات التحقيق اللازمة في تنظيم الجنايات, وأحسب أن هذا الشيء قد برئتم منه يا حفيدتي..

فتنحنحت كأن شيئًا يشغب في زوري وغيرت مجرى الحديث:

– ولكن أين كانت تعقد المحاكمات؟ في العلن أو في الخفاء؟

– كثيرًا ما كانت المحاكمة تعقد في موضع الجناية, حيث تؤثر ظروف الجريمة على أعصاب الجاني فينهار إنكاره ويعترف.. ولكن العلانية لم تكن شرطًا للمحاكمة؛ لأن السلطة لا تستمد من جمهور الأمة, فلا محل للرقابة

الشعبية، أما العقاب فتتوخى فيه العبرة, ولذلك كثيرًا ما يكون على رؤوس الأشهاد.

وقلت لنفرتيتي:

– آمنت يا مولاتي أن فرعون لم يكن طاغية على قومه, وأن التقاليد الدستورية كانت راسخة في وادي النيل على عهد الآباء الأمجاد.

– بل إنه لولا غرور المنصب لفر الفراعين من قيود حياتهم؛ لأنهم كانوا مقيدين «ببروتوكول» دقيق في كل شيء... ففي بكرة الصباح يستيقظ فرعون فيقرأ البريد، ثم يستحم ويرتدي شارات الملك، ويقدم القرابين للآلهة، ويصغي لصلاة يتلوها كبير الكهان.. ثم يوزع ساعات النهار بين المقابلات الرسمية، والنزهة، والصيد.. وهو في ذلك كله محوط بالحاشية، وبهالة المنصب الرفيع، فلا يتحرك حركة إلا بمقدار يقدر لها من قبل...

– ما أعجب مصائر البشر.. يظن الواحد منهم أنه ملك الناس، فإذا الناس يملكونه، حتى فرعون! فهو لا يعدو أن يكون «موظفًا عامًّا» بل «مجندًا» تحت التاج لخدمة أمة، يحسب هو ويحسب الناس أنها ملك يمينه!

– هذا صحيح.. ولكن لا تنسي يا حفيدتي أن هذه الأعباء الجسام يتفاوت الملوك والفراعين في صدق النية والجهد للنهوض بها، فمنهم من ينهض بها خالص القلب لها، ومنهم من يخلبه البريق واللآلئ، فلا يحمل من تلك الأعباء إلا القدر الذي ييسر له المتعة بأبهة العرش وجاه الملك.

أبّهة الملك

إذا فسد الناس

قلت للملكة بعد هذا:

– إن الواجب وقيام الناس به أمر حير الخلق منذ زمن بعيد، بل هو أكبر هموم المصلحين والدعاة... ولكن المشكلة الكبرى في هذا الموضوع، هي أن فريقًا من الناس يقول: «اصلح الراعي تصلح الرعية».. وفريق غيرهم يقول: «اصلح الرعية يصلح الراعي».

فضحكت نفرتيتي وقالت:

– ما أشبه هذا في ظاهر الأمر بالأشكل القديمة «أيهما أسبق في الوجود: البيضة أم الطائر؟».. ولكن الأمر في موضوعنا أيسر من البيضة والبائض، فلاشك أن الجماعة أسبق إلى الوجود من القائمين عليها، ففساد الناس ينجم عنه فساد الحكام، أما الحاكم الفاسد في الأمة الصالحة فأمر لا يقوم، وإذا قام لا يستقيم ولا يدوم.. فلا فساد إلا بالتواطؤ الضمني بين الحاكم والمحكوم

– وشبهة أخرى يا ذات الجلالة.

– هاتيها.

– القوانين.. أليس صلاحها ضمانًا لصلاح الحال؛ لأنها تقيد ولاة الأمر بقيودها، وتحملهم على الحذر من الوقوع تحت طائلتها؟

- قول مردود.. فليست القوانين مجدية بغير الضمائر ورقابة الإحساس الخلقي في الجماعة الواعية.. وقد صدق ذلك الحكيم الإغريقي الذي تلا زماننا بزمان طويل، حين قال إن خير القوانين يفسد في الجماعة الفاسدة، وأسوأ القوانين لا يضر -إذا لم يصلح أمره بالتطبيق- في الجماعة الفاضلة.

- العبرة إذن بالأخلاق.

- أجل.. ولكن حذار من فهم الأخلاق على صورتها السلبية.

- وما الأخلاق السلبية، وما الأخلاق الإيجابية يا مولاتي؟

- الأخلاق السلبية هي التي تقوم على «الامتناع» عن الأعمال المرذولة، فالشرف فيها عدم الزلة.. والأمانة فيها عدم الخيانة، والخير فيها عدم فعل الشر.

- سمعنا ووعينا.. فما الأخلاق الإيجابية إذن؟

- هي تلك التي تقوم على «فعل» الفضيلة وممارستها، ولبابها كله هو حمل المسئولية والإخلاص في أدائها... والشجاعة في محاربة الفساد، والصلابة في الصمود لغواية الشهوات التي تضر بالجماعة، فلا أخلاق بغير مسئولية، ولا فضيلة بغير شجاعة وإنكار للذات.

- كل هذا جميل..ولكن كيف تكون المسئولية بالنسبة لفرعون وهو مصدر السلطات؟

- على رسلك.. إنه مصدر السلطات بوصفه وكيل الآلهة، فهو مقيد بالناموس.

- ولكن إذا قلنا أن فساد الجماعة هو علة فساد الحكام، تعارض ذلك مع القول بأن فرعون لا حساب عليه من الأمة، فإنما يحسب حساب الرأي العام من يخشى غضبته ويعتمد على ثقته.

- ليس هذا صحيحًا وإن بدا أنه صحيح.. فإنه ما من إنسان مهما علا مقامه يعيش مستقلاً عن جو المجتمع وقيمه الخلقية، فهو متأثر بها لا محالة، منساق إليها في الغالب الأعم. يضاف إلى هذا أن كل إنسان محتاج إلى الشعور بتقدير الناس له، فلا يستطيع أحد أن يضرب بذلك التقدير عرض الحائط، سواء كان هذا التقدير عن حب أم خوف.. ومن هنا كان فساد الناس، وانحطاط مستوى قيمهم الخلقية شرطًا أساسيًا لفساد الحكم وهبوط مستواه.

- ذلك لعمري فصل الخطاب.

- وفيه تعليل التحول الذي بدا واضحًا في عهد أبي أمنحتب الثالث.. فقد تحول الملك من الجد إلى الزهو، والأبهة، والتقلب في النعيم، ولكنه لم يصل إلى حد الاستهتار التام، وما كان ممكنًا أن يصل إلى هذا الحد أبدًا.

- ولماذا؟

- لأن الحكومة لا تفسد جزافًا، بل بقدر فساد الزمن، فأمام فرعون ناموس قائم–وإن كان التساهل في ظروف الانحلال ممكنًا– وكان أمامه سلطان الكهنة وأمراء الأقاليم.. ثم إن الأبهة نفسها تلزم صاحبها بنوع من الكرامة والترفع –تسمونه الأرستقراطية بلغة هذا العصر– يغني عن

الغيرة الحقيقية على مبادىء الأخلاق والصالح العام.

- قصارى القول إذن يا مولاتي أن عصر أبيك كان عصر تحول عن العمل إلى الترف، ومن الخدمة العامة والبذل في سبيل الجماعة إلى المنفعة الذاتية، وتكالب على المغانم والللذات.

- ذلك كذلك وا أسفاه!

أعتاب فرعون:

وأطرقت الملكة حينًا، فلم أرد أن أعكر عليها صفو تفكيرها، إلى أن رفعت رأسها، وصعدت آهة تنبىء عن حسرة، فقلت:

- ما خطب مولاتي؟

- لا شيء.. إنه الحديث يا بنية، والحديث ذو شجون.. فقد تذكرت ملاعبي في طيبة، وفي أرباض مدينة حابو على يمين النيل، وفي منف حاضرة جيوش فرعون إذا هجرت حرارة الصيف.

- رعى الله مولاتي.. أهو الحنين إلى الصبا الفينان؟.

- أجل.. ففي تلك الملاعب من ساحات قصور فرعون أبي، أو أعتاب فرعون كما كان يدعوها الناس، نشأت بين البر، والحنان، والتعظيم.

- وكيف كان مقامكم بها؟

- أطيب مقام.. ففي أوان الشتاء كان مقر أبي الرسمي في قصره الملكي بطيبة، التي جملها وعمرها حتى صارت أجمل عواصم الدنيا حتى ذلك الزمان، وجعل قصره فيها تحفة في الأبهة التي تخشع لها القلوب.. ولكن

أمي «تي» كانت تكره الإقامة في القصر، لثقل الهواء في المدينة الكبرى، أو لكراهتها جو القصر الرسمي الحافل بالضرائر والحظايا، فابتنى لها أبي قصرًا على يمين النيل، حيث الهواء النقي في حضن الجبل.

- أعن يمين النيل تقولين؟.. أليس الضفة اليمنى مدينة الموتى يومذاك، بل هي كذلك إلى اليوم في بلاد الصعيد.. مثل المنيا من أعمال الأشمونين؟..

- أجل.. كانت الضفة اليمنى مدينة الموتى، ولكن أبي لم يأبه بالتقاليد، وابتنى لأمي قصرًا ريفيًا في ذلك المكان، تحيط به حديقة غناء، فجاء آية في الترف والإبداع الفني، مع بساطة تشيع الهدوء في النفس، وتوخ للظل ورطوبة أنفاس الهواء تحت السقائف والعريشات.. أما الرسوم التي تغطي الجدران فلا حد لروعتها وما تسببه للنفس من راحة وانطلاق.... ومن أسف أنه قد عفى عليه الزمن، كما عفى على قصرنا الرسمي في طيبة.

- أجل، لقد زالت من الوجود ديار الفراعنة، ولم تبق إلا قبورهم.

- ولا عجب يا بنية!.. فقد كنا قومًا نؤمن بالحياة الخالدة بعد الموت، وعودة الروح إلى الجسد، وكنا نعلم أن هذه الحياة الدنيا لا بقاء لها، ففيم إنفاق الجهد والمال في بناء الدور لحياة لا تدوم؟ خير من ذلك بناء قبر يقاوم الزمن لحفظ ذلك الجسد إلى أن تعود الروح ولو بعد ألوف السنين؛ لذلك كانت أعتاب فرعون، أو قصوره التي يقيم فيها للحكم، أو للاستجمام من اللبن كسائر بيوت أهل النعمة من

المصريين، ولكن زخرفتها وزينتها ووسائل الراحة فيها كانت شيئًا يفوق التصور في بذخه وجماله... وهو واأسفاه جمال وبذخ لم يكتب لهما الدوام.

– كان كذلك قصر «تي» الصيفي من اللبن أيضًا، على أبهته وروعته؟

– أجل.. ولم يدخر أبي وسعًا في توفير أسباب المتعة والراحة فيه، فقد شكت إليه أمي الملكة يومًا من جفاف الهواء وسخونته، فأمر أن تحفر بجانب القصر، في مهب الريح، بركة هائلة طولها ٣٧٠٠ ذراع، وعرضها ٧٠٠ ذراع، فلا تضيق بسخونته، وجفافه أمي الملكة الكبرى «تي»، ثم جعل البركة زورقًا مصفحًا بالذهب الخالص، ليذرع فيه البركة مع أمي في هداة الأصيل، ترويحًا عن النفس في ذلك المحيط الطبيعي الرائع بجباله وصمته العميق.

– ذلك كان منتجعكم للراحة في أيام الشتاء، إذا آدكم قصر طيبة... وأين كان مصطافكم إذا هجر الصيف في «منف»؟

– في قصر منف، الذي بناه لأبي وزيره القائم على الجيش، فافتن في رفع عمده، وتزيين أسواره وأبوابه، ليكون لائقًا بالقائد الأعلى لأعظم جيش في الدنيا.

– تلك هي «الجدران».. فما خبر السكان؟

– مئات من الحور العين، من بنات الملوك والأمراء في الشمال والجنوب، ومئات من الخدم والعبيد، في أزياء بلادهم المتعددة الألوان والطرز، وأما الأثاث فكان آية في دقة النقش، وجودة الأخشاب، فلكل قاعة

مقاعد من طراز خاص، تلك للأمراء، وهذه للوزراء... فما أكثر تفنننا في المقاعد والأسرة!، منها ما يعد للاستقبال، وما يعد للرحلة والقنص، وما يعد للراحة، وما يخصص للطعام.

زينة فرعون:

- كل ذلك يا مولاتي نقدره ونتصوره، ولكنني أشتاق أن أرى يومًا من أيام فرعون في قصره، بين النعمة والنعيم.

- هو عليَّ هين.. فاتبعيني، مغمضة العينين، ولا تسأليني إلى أين، ولا تفتحيهما حتى آمرك..

وأغمضت عيني، فلمستني من جانبي رأسي بيديها، ووضعت ذراعها حول خاصرتي، فكأنني طرت في الهواء، أو هبطت واديًا مسحورًا لا يحس له جرس ولا يسمع فيه حس، ثم سمعت صوت نفير، وقرع طبل كبير، وصيحة كصيحات الحراس، ثم قالت لي الملكة:

- الآن افتحي عينيك، واطمئني فسوف لا يراك ولا يراني ولا يسمعنا أحد، وإن كنا نسمع ونرى ونفهم على غرابة اللغة.

- وما صوت النفير الذي سمعت؟

- نوبة الصباح في قصر طيبة.

وقلبت طرفي من حولي.. فإذا عمد رشيقة القد، سامقة الطول، عليها نقوش وزخارف، وصور صيد، وفتح، وأسرى تقاد، وفرعون على عرشه يتقبل منهم الولاء والخشوع.. وهو واسع الأرجاء، عليه سقف تتوسطه

فتحة مربعة من فوقها عريشة تمنع هاجرة الشمس وتسمح للنور بالنفاذ.. واستولت عَليَّ الروعة مما أرى، حتى نبهتني نفرتيتي، وفي صوتها غنة حنين ورقة لملعب الصبا:

– الآن صحا فرعون... وهو في هذه الحجرة عن اليسار، يتزين ويرتدي ثيابه ويستعد للقاء الناس، في يوم من أيام فرعون الحافلة.

وتبعتها، فإذا فرعون عليه قميص رقيق، وقد حف به نفر من كبار دولته ورجال حاشيته، وقد انحنى على يديه عامل يسوي أظفارهما، وعلى قدميه عامل آخر يشذب أظفارهما، وعند رأسه حلاقه الخاص يحلق له رأسه فلا يترك فيها نابتة من الشعر، ويحلق له لحيته وشاربه، وهو يجاذب رجاله ونفرًا من حريمه أطراف حديث عن بريد الشام وبلاد النوبة.. ثم وضعوا على جسده زيه الملكي

ولم يكن ذلك الزي أفخم وأبهى من زي الأمراء وقواد الجيش فحسب، بل كان مرعيًا فيه إبراز ما للابسه من مقام لا يعد له مقام.. فلا يمكن أن يظهر فرعون للناس عاري الرأس.. كلا! بل يلبس شعرًا مستعارًا كذلك الذي يلبسه قضاة انجلترا في هذا الزمان.

– ألا يضيق الملك بهذا الشعر المستعار يا مولاتي؟.. إن عزاءه على كل حال أنه يخلعه عنه إذا خلا إلى خاصته وآله.

– على رسلك! إني لم أر أبي عاري الرأس أبدًا، فذلك تبذل لا يسمح به حتى أمام الأبناء.. أما إذا جاء وقت النوم فتلك مسألة أخرى، أنظري.. هذا هو تاج النيل، تاج الشمال والجنوب يوضع على رأس

أبي.

ونظرت، فإذا التاج المزدوج وقد علا رأس الملك، وغطى الشعر المستعار الذي كان يعلوه، ولكن كانت تندلي منه على العارضين شعرات تصله بلحية طويلة مستعارة، كلحى الآلهة.

– أيلبس هذه اللحية دومًا؟

– كلا! إنه لا يلبسها إلا حين يرتدي التاج، لعمل من أعمال «التشريفة» الكبرى.. أما فيما عدا ذلك فلا لحية ولا تاج. أنظري!.. لقد لبس ثوبه المعد للحفلات والمراسم..

ونظرت فإذا أزار الثيات الرفيعة «يلبسه» تتوسطه منطقة عليها شعار فرعون في «خرطوشة» جميلة النقش... وفي قدميه نعل خفيف مكشوف محلى بالذهب.

وكأنما بدا على وجهي أنني كنت أنتظر شيئًا خيرًا من هذا، فقالت نفرتيتي:

– صبرًا، ليس هذا هو أهم ما في زي مولانا.. هاك.

وتطلعت، فغذا حلى تخطف الأبصار بسناها وبديع صنعها، أهم ما فيها قلادة فاخرة كثيرة الصفوف، بعضها من لؤلؤ وبعضها من ذهب، ولها فوق العنق من خلف قفل على هيئة رأس الصقر، والصقر من آلهة المصريين المعبودة، وكان الصف الأخير من لآلئ القلادة يشبه الدموع في صفائه، ورونقه، وشكله العام.

ولم أملك نفسي أن أهتف:

– ما أبدع هذه القلادة، وما أروعها!

فابتسمت نفرتيتي ابتسامة خفيفة، وقالت:

– آه لو لبستها يا بنية.

– أهذا ممكن؟

– تعالي ألبسك مثلها.. ففي خزانة فرعون عديد من القلائد.

وصحت دهشة، فقد كانت القلادة ثقيلة جدًا.. فقلت:

– وي! هذه والله نير ثقيل وليست قلادة ملك!

وابتسمت ابتسامتها الحزينة مرة أخرى، وقالت:

– كذلك كل شيء يتصل بالملك، ظاهره مرموق محسود، وباطنه يستحق الشفقة، وتنوء به الكواهل الشداد... ولكن لا يشغلنك الحديث عن بقية المشهد، فليست هذه القلادة التي تزن بضع أُقَّات كل ما سيسير به أبي المسكين من أثقال!

ونظرت، فإذا فرعون وقد زادوا عنقه أثقالاً بلوحة من ذهب على هيئة واجهة المعبد المقدس، مدلاة على صدره الملكي تحت القلادة بسلسلة ثقيلة مزدوجة! ثم شدوا كل ذراع من ذراعيه باسورتين ضخمتين إحداهما قرب الكتف، والأخرى عند المعصم.. وجعلوا عند كعبيه أسورتين من طرازهما..

وأخيرًا، وضعوا على منكبيه رداء طويلاً من نسيج شفاف، قصير الكمين، يضمه عند الوسط حزام آخر مرصع بالشعار الملكي من أمام.

وبذلك تمت زينة فرعون

في قاعة العرش:

وانتقل فرعون بعد ذلك إلى قاعة عرشه الكبرى يحف به الملأ من رجال القصر والوزراء.. كلهم في عنقه قلادة، يختلف طولها ومعدنها وكثرة أفرعها بحسب منزلته في الدولة، فقد كان اليوم مخصصًا لاستقبال السفراء.

وجلس فرعون فوق عرشه الفاخر المصنوع من خشب الأبنوس، والمرصع بنقوش فاخرة مذهبة فيها حجارة كريمة من الزمرد واللازورد، والعرش فوق منصة عالية في صدر القاعة الفسيحة السامقة العمد، التي تغلب عليها البساطة النسبية؛ لأنها أدعى إلى الهيبة والإجلال.

ومن وراء الملك حامل مروحته.. وهو أعلى رجال الدولة مقامًا، فهو ليس مجرد حامل مروحة! كلا، بل هو أقرب الناس موقفًا من فرعون، وأدناهم إلى إذنه بالمشورة والنجوى في كل أمر...

وقالت الملكة وهي تشير إلى حامل المروحة:

– ألا تعرفين هذا الرجل السمح؟

– أكاد أذكر أنني رأيت له صورة في كتاب..

– إنه جدي، والد أمي الملكة تي.. صاحب المشورة والحظوة.

وفي جانبي العرش، على أرض الحجرة الحجرية، وقف رجال الدولة كل

عند رتبته، مطأطئين رؤوسهم... والحراس والحجاب عند أكناف الباب، وجلس القرفصاء قرب درجات العرش جماعة من الكتاب في أيديهم الألواح والأقلام لتسجيل أوامر فرعون الملكية، وما يجري أثناءالاستقبال من الأقوال.

ودخل أولئك السفراء ووراءهم حملة التحف والهدايا، وكانوا خليطًا من ممثلي ملوك سوريا، والنهرين، وإقريطش، فتطأمنوا بين يدي فرعون، وقدموا هداياهم الثمينة، وأعربوا عن مودة ملوكهم وإجلالهم لعزيز مصر.. فقام الكتبة بتسجيل الهدايا وإحصائها، ثم أضيفت إلى بيت مال الملك، بعد أن حمل جانب منها إلى خزائن الآلهة في المعابد الكبرى.

وبعد ذلك تكلم فرعون.. فأهدى إلى كل سفير هدية أثمن من التي جاء بها، ليحملها إلى مولاه. وأهداه هدية أخرى لشخصه، لكي يعلم الجميع أن فرعون كجبل الذهب الذي يفيض على جميع البلدان.

ثم تململ فرعون في مجلسه، فكانت تلك آية إرفضاض الاجتماع...

وخف فرعون إلى جناحه الخاص، لينضو عنه ثوب التشريفة الثقيل، وتاجيه الكبيرين، وقلائده التي ينوء بها جيده الملكي.

ولي النعم:

فقلت لنفرتيتي:

– هل انتهت مشاغل فرعون هذا النهار؟

– كلا.. فبعد قليل ستبدأ حفلة أخرى.

- أيستقبل سفراء أخر؟

- كلا.. بل يستقبل نفرًا من رعاياه المبرزين، من عسكريين ومدنيين، ففرعون من أهم صفاته لدى شعبه أنه «ولي النعم»، يجازي المحسن ويجزل العطاء كرمًا منه، فهو يجمع الممتازين من رعاياه، الفينة بعد الفينة، لكي يقدم لهم العطايا والإنعامات.

- أهي حفلة إنعامات إذن؟

- أجل.. والأصل في هذه العادة أن فرعون كان يجزي البواسل من جنده بالمال وقلائد الذهب إذا أظهروا شجاعة وبأسًا في ميدان القتال تشجيعًا لهم ولغيرهم.. ثم عممت هذه البدعة، فصارت تقليدًا يتمتع به المدنيون أيضًا؛ ذلك أن المصري بطبعه محب للسلم، مقدر للخدمات التي تقدم أثناء السلام لخدمة الدولة والحضارة، فليست الحروب إلا ضرورة لصيانة السلام، فهو مقدم عليها في العناية والقدر.

- ولماذا لا ينعم فرعون على هؤلاء فرادى، دون أن يكلف نفسه مشقة حفل رسمي؟

- لأن الحفل أبهج للمنعم عليهم، وأكثر تنويهًا بذكرهم، وأفعل في حفز النفوس إلى مجاراتهم والاقتداء بهم.

ثم قادتني نفرتيتي إلى خارج القصر، فإذا ساحة كبرى يحف بها بستان، وإذا المنعم عليهم يقدمون وقوفًا في عرباتهم يقودونها بأنفسهم، فالعربات في ذلك العهد لها عجلتان فقط، ويقف صاحبها وبيده عنان الجواد.. فليس لعربة أحد جوادان، خلا فرعون نفسه.. فصفت تلك العربات في

الرحبة، وأعنتها بأيدي السياس، الذين كانوا يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، وقد يجاذبون أطراف الكلام حراس القصر في غير كلفة، ابتهاجًا بذلك اليوم الميمون، وكل سائس يطرى مناقب مولاه ويعدد مزاياه.

وكنت أشعر بغبطة غريبة وأنا أتجول بين هؤلاء الناس، فأراهم وأسمعهم دون أن يروني ويسمعوني.. حين نبهتني من هذا الشعور نفرتيتي قائلة:

- أنظري نحو هذه الشرفة.. فحين يلتئم الجمع، وتحين ساعة الحفل، سيظهر أبي في هذه الشرفة التي تفضي إليها قاعة ضخمة ذات عمد، فيها موائد، ونضد، وصناديق ذات عدد، صفت عليها، أو فيها هدايا فرعون التي سينعم بها على رعاياه المحسنين... ورجال الحاشية يحفون بها، كي يقدموا لفرعون هدية كل واحد منهم من جاء دوره.

ورأيت تحت الشرفة القليلة الارتفاع رحبة نظيفة فيها أصص الزهر، محوطة بسياج جميل، ورجال التشريفات والأمناء يتولون تنظيم المنعم عليهم صفوفًا بحسب الدور والأسبقية في «البروتوكول».

وأخيرًا ظهر فرعون في الشرفة الملكية، وإلى جواره الملكة تي، ومن خلفهما والدها حامل المروحة الملكية، وكبير مستشاري الملك في آن واحد.. فخر الجمع ساجدين، ثم تقدم أولهم فحيا الملك بذراعيه متقاطعين فوق صدره، ودعا للملك وعدد مناقبه، فرد عليه فرعون مثنيًا على إخلاصه للعرش وحسن بلائه في خدمته.. ثم ذكر المنصب الذي رفعه إليه جزاء ذلك الإخلاص، وناوله هديته المنعم بها عليه، فأسرع رجال القصر بوضعها حول رقبته، لأنها قلادة كريمة تقوم مقام الرتب والنياشين عندنا..

وقد تتعدد القلادات في المرة الواحدة، فيبلغ عددها ثلاثًا، أو أربعًا من الذهب الخالص، ثم يلقي إليه فرعون بهدايا أخرى من الذهب، قوامها كئوس من خالص النضار.. ويصرف له جانب كبير من الأطعمة الملكية والنبيذ الملكي، يحمله من خلفه أتباعه وهو منصرف من الباب بين تحايا الموظفين والحراس والسياس، فيستقل عربته إلى داره، يحف به أصدقاؤه وأولياؤه، الذين يزيد عددهم كلما تقدم المسير، حتى يضحى موكبه مظاهرة صاخبة عند وصوله إلى الدار، فتستقبله امرأته وجواريه بالزغاريد، وتقام مأدبة حافلة في تلك الليلة السعيدة.

ويتوالى في القصر تقديم الإنعامات من ولي النعم، حتى ينتهي الحفل، وقد عم السرور كل إنسان.. وسجل الكتبة في سجلات القصر تلك الإنعامات مفصلة في إسهاب.

التابع والمتبوع

سيد العالم

وانصرفنا من ذلك الحفل الحافل، فاتخذنا مجلسًا تحت صفصافة على الشاطيء من حديقة قصر «سيد العالم» ولمحت على وجه نفرتيتي شيئًا من الزهو بهذا الذي شهدنا، فقلت كي أحفزها على الكلام:

– لقد آثرتني مولاتي بشرف صحبتها إلى زمانها، فمالي أراها بمعزل عني في خلجات الشعور وسوانح التفكير.

– حاشا!.. ولكنه شيء من الزهو وشيء من الحسرة.

– أحسرة على ما فات؟

– بل حسرة لما فات، وعلى ما جد في أعقابه من الآفات، ففي ذلك الزمان الذي نشهده الآن، كان فرعون سيد العالم، وأعظم بني الإنسان، وكانت مصر قصبة الدنيا وقبلة البلدان.. سيادتها على ضفتي الوادي لا يجتزيء منها مجتزيء، ولا يجتريء عليها مجتريء.. فالسودان ومصر شيء واحد، وعروة وثقى، بل لقد حدث أن تقلص سلطان مصر عن شمال الوادي، فكان في جنوبه أعز وأبقى.. أما اليوم يا بنيتاه..

– واخزياه!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

– وبكم يا فتاة!.. لو صدقت النية وصح العزم!

- ولكن الناس في زمانكم لم تكن بهم حاجة إلى مناورات السياسة، ومؤامرات الدس، وتبادل المنافع...

- على رسلك! فإن الإنسان هو الإنسان من أقدم الأزمان.. والسياسة هي السياسة ما قامت الدول وثارت المطامع.

وسكتت الملكة لحظة، وسرحت ببصرها على أمواج النيل هنيهة ثم استطردت تقول:

- لقد كان فرعون يلبس لبلاد آسيا لبوسًا يختلف باختلاف الأحوال: فهو آنًا أب بر، وآنًا آخر إدارة في جلد نمر.. فأمراء البلاد المفتوحة يزاولون سلطانهم فيها تحت رقابة الولاة المصريين.

- ولماذا لا يمارس الحكام المصريون إدارة تلك البلاد مباشرة، أليس هذا أليق بالسلطان وأوكد له؟

- هذا أول ما يخطر على البال، وهو أسهل الحلول وأرضاها للغرور، والحصيف الحصيف من ينظر بعين الحذر إلى مثل هذا الحل السهل، وما ينطوي عليه من غواية وإغراء.

- تقريع عنيف، ففيم هو يا مولاتي؟.

- إن الأمم العريقة في السياسة، ومنها دولكم المعاصرة ذات الإمبراطوريات، تميل دائمًا إلى حكم البلاد المغلوبة بقوم من أبناء هذه البلاد، ولا تستبقي إلا سلطة الإشراف والتوجيه. وتلك خطة أريبة تنبىء عن ذكاء؛ لأنها لا تفوت على الغالبين شيئًا من منافعهم في تجارة

أو نفوذ، وتنفعهم في تحويل الحقد على الأحكام الجائرة إلى قوم من أبناء البلاد، وتنفعهم كذلك في اجتذاب عدد من وجوه تلك البلاد يتزلفون إليهم بغية الظفر بالمنصب يومًا ما، فتدور السياسة في ذلك البلد المغلوب حول مرضاة المحتلين، ولا تتألف جميع القلوب على دفعهم والخلاص منهم حين يحكمون حكمًا مباشرًا.

– هذه والله أحدث الآراء في الاستعمار.

– وهي كما ترين ليست حديثة، إلا إذا اعتبرت فرعون مصر من المحدثين، ولكنه غرور أبناء الزمان الأخير، يخيل إليهم أنهم بزوا الأولين، وهم عالة عليهم في كل أمر.. تلك كانت حال الإدارة في المستعمرات، تصدر الأوامر العليا من رئيس الوزراء، ويتلقاها الولاة فيلقنونها الأمراء من الأهلين، وهؤلاء يقدمون لمصر ما طلبت، متصدين له كمخلب القط الذي يخرج الكستناء لصاحبه من النار.

جنوب الوادي:

– تلك يا مولاتي مستعمرات مصر في آسيا، فكانت حكم مصر لشطر الوادي الجنوبي على عهد فرعون؟

– حكم أخ كريم لأخ كريم، على إعزاز منه وتعظيم، «فعنيبة» حاضرة المركز المعروف باسمها الآن، كانت عاصمة المملكة المصرية الجنوبية، التي تمتد حتى «نباتًا» عند الشلال الرابع.

– ما أبعد هذا البلد من طيبة عاصمة فرعون!.

– إنها ألف ونصف ألف من الكيلو مترات –مقياسكم الحديث– فكان «نائب الملك» يحكم ذلك الشطر الجنوبي من الوادي في عاصمته "عنيبة"، باسم... ولا غرابة! فإن وحدة الشطرين أمر معروف من حيث الجنس والحضارة في فجر التاريخ، قبل أن تقوم الدولة قيامها على يد «مينا». ثم فرق الدهر بين الشطرين دهرًا، خطى فيه الشمال نحو الحضارة قدمًا، وحالت حوائل دون ذلك التقدم في الجنوب، إلى أن عادت مصر تبحث عن «نصفها الغائب»، حتى قيض الله لهما الوحدة على يد تحتمس الأول. فأنشأ وظيفة «حاكم الجنوب» ولقبه بأمير كوش، ومتعه باستقلال مذكور في التدبير والإدارة.

– وكيف كان يعين ذلك الحاكم العظيم؟.

– من أهل الجنوب.. يختاره فرعون، ويكرمه بألوان من التقريب والمجاملة لا يظفر بها أي حاكم من حكام فرعون، إظهارًا لمكانة الجنوب الممتازة، فيحتفل بتنصيبه في أكرم ساحة، هي ساحة آمون كبير الأرباب.. فهناك يمثل فرعون بجلال قدره، ويقدم لنائبه في الجنوب «خاتم السلطان»، تشبها بخاتم فرعون نفسه، ولا عجب! فسلطانه يمتد من شمال أسوان إلى الشلال الرابع.

– وإلى أي حد كان يمتد سلطانه في مرافق الدولة؟.

– إلى كل شيء يخطر بالبال.. فهو قائد الجيش هناك يدفع البدو عن حدوده، ويمد فرعون بفرق الجنوب في جيش منف، وإليه يوكل اختيار المواقع للحصون، وإقامة القلاع، وتشييد المعابد، والقيام على الري

والصرف، وفي يده ميزان العدل والقضاء، وسلطة الضبط والربط، وجباية الخراج، واستغلال المناجم والمحاجر والغابات... وإليه تدبير التجارة العظيمة على وجه النيل هابطة إلى شمال الوادي.

– تلك والله سلطات واسعة... ولكن أخشى أن تكون جل أهدافها خدمة الشمال لا رفاهة الجنوب.

– لا وأبيك!.. فقد كان قومنا أعقل من التورط في مثل ذلك الخطأ الفادح، فأول واجبات الحاكم العمل على ازدهار الزراعة والصناعة، فكان في قصره نفر من أمهر الصناع المصريين يقومون على تدريب أهل الجنوب أصل الصناعة والفن، فما من شك أن مستوى الحياة قد ارتفع كثيرًا على يد المصريين في الجنوب، وأنه قد خطا بفضل معونة الشمال والاتحاد معه خطوات جبارة في ركب الحضارة الذي سبقت إليه مصر ألوفًا من السنين قبل ذلك... وقد عرف السقاة أن أمور الري على الخصوص كانت عناية فائقة في السودان أيام ذلك العهد الذهبي. وخير برهان على رفاهة السودان ورضاه عن ذلك الاتحاد مع مصر، أنه اصطبغ بصبغة مصرية خالصة في سرعة عجيبة، فعبد آلهة المصريين، وتمصرت أقاليمه كل التمصير.. ولا يكون ذلك لو أن مصر حكمت السودان حكم غلبة واستغلال، لا حكم أخوة ووحدة لا فرق فيها بين جنوب وشمال.

الفطرة والتكلف:

– أجل يا بنية.. إن وحدة الشمال والجنوب فطرة الله، لا اصطناع بني

الإنسان، وما جمعه الله لا يفرقه الإنسان...

- ولكن ها هم يفرقونه في هذا الزمان!.

- لا تصدقي! فهم يخدعون أنفسهم حين يتوهمون أنهم يستطيعون لما فطر الله خلافًا. فلا تحزنوا؛ إذ لابد من التئام الجرح وتمام الوحدة عن قريب؛ لأنها فطرة طبيعية ببرهان عملي من إمبراطورية أبي الفرعون.

- أن مصر فتحت الجنوب، وفتحت كذلك ملكًا شاسعًا في أقاليم آسيا، من فلسطين وفينيقيا إلى وادي الفراتين في أقصى الشمال.. فاصطبغ الجنوب بصبغة مصرية خالصة، ولم يصطبغ ملكها في الشرق بتلك الصبغة.. لماذا؟ جواب واحد يصح في الأذهان، هو أن الجنوب من طينة الشمال، أما ذلك الشرق فليس من طينة مصر، فكان ملكها فيه إلى زوال... وظلت دائمًا بسبب هذه الأقاليم الأسيوية التي تنكأ جروحها في الحين بعد الحين بثورة دامية تريد بها التخلص من حكم مصر...

- إن هذا لمزعج!.

- أجل!.. ومن أجل ذلك اكتفى فرعون أبي من أمراء تلك البلاد بالطاعة، والجزية، والاعتراف بتاج فرعون، وتسهيل مهمة جيوشه إذا عبرت بلادهم للقاء عدو، أو دفع غارة.. ولكن...

وسكتت نفرتيتي عند «لكن» هذه... فنظرت إليها مستفسرة، فقالت في أسف:

- ولكن هذا الشرق كان في زماننا صورة مما هو عليه في هذا الزمان الأخير.. تيارات من النفوذ، والدسائس الخفية، والتنابذ، تفرق بين إماراته أمم الحيثيين والميتاني التي تتاخمها، حتى كان بأسهم بينهم شديد...

- إنها سياسة «فرق تسد» التي تعيش عليها بعض الدول الكبيرة في هذا العصر الحاضر.. فلماذا لم ينتهجها فرعون...؟.

- ماذا تقولين؟.. وهل يليق بالأسود فعل الثعالب وبنات آوى؟! صه! لا تبرر الغاية الوسيلة إلا عند الأوشاب ونفايات الخلق! وفرعون عزيز مصر.. وهو لا يريد لدول الشرق إلا العزة بالإجماع والتضافر، فكيف ينشد العزة من هذا الباب الذليل.. باب الوقيعة والتفريق؟

صغار الخلق:

- وماذا كان مستطيعًا أن يصنع إذن؟.

- لقد استطاع وصنع فعلاً.. استطاع أن يجمع هؤلاء الأمراء المتنابذين في حلف مع مصر، ليكونوا أقدر على دفع العدوان، وبحيث يخف فرعون إلى خدمتهم متى أغار عليهم عدو شديد البأس...

- ولكن...

وسكت أنا في هذه المرة بعد «لكن» لا أفصح عما بعدها، فقالت نفرتيتي:

- ولكن ماذا؟.

- ولكن عهدنا بهذه الدول، لا تحفظ عهدًا ولا تقيم على ولاء، ولا تسكت عن الدس والمناورة، ولو في غير مصلحتها المشتركة...

- هذا صحيح!.. وكذلك كانوا...

- فكيف إذن، وقد عف فرعون الأسد عن سياسة فرق تسد، تسنى له أن يحفظ ذلك الحلف من الانهيار؟..

- بفعل الأسود وسطوتهم.. فقد كان يرقب أولئك الأمراء مراقبة حذرة، حتى إذا جاءه عنهم ما يريب في ولائهم، أحضرهم جميعًا إلى قصره في طيبة، وتولى محاكمتهم بنفسه، فإذا ثبتت براءتهم كان خيرًا، وإذا أخفقوا عاقبهم وذويهم بالبقاء في مصر لا يعودون إلى بلادهم أبدًا... وربما وصل العقاب إلى حد القتل على الخيانة الثابتة! فهو لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وأبوة للشعوب والدول لا للأمراء المهدرين مصالح أممهم...

فقلت معجبة:

- نعمت السياسة يا مولاتي.. وأنها وأيم الحق لسياسة أسد عرين لا يختال ولا يستكين، ولكنه لا يذل الكرامة ولا يستهين بشعور المغلوبين.

- ذلك صحيح.. ولكن إياك أن تظني بفرعون مصر الإفقار من السياسة ذات الحدين، التي تنطوي على البر، ودفع الضرر، والحذر في آن واحد.

- وما ذاك؟.

- ذلك أنه كان يدعو أولئك الأمراء الذين يعرف أن ولاءهم مشوب بالزغل، لكي يتربوا مع خاصة أبناء فرعون، فيكونوا ضباطًا في حرسه، و«ياورانًا» في تشريفاته... وينشأوا على الثقافة المصرية، فيشربوا الميل إلى مصر، ليكونوا عند تولي الإمارة في بلادهم معها لا عليها بقلوبهموسرائرهم.. وهم في الوقت نفسه «رهائن»، إذا لم يبق آباؤهم على العهد، كانوا ضحية الخيانة والغدر.

- إنها إصابة عصفورين بحجر واحد... وهي بعينها سياسة روما بعد ذلك مع أمراء ذلك الشرق، وهي أيضًا سياسة هذه الدول المستعمرة في الزمن الحديث، حين تحاول نشر ثقافتها في البلاد المغلوبة، وتشجع بعوث أبناء الخاصة إلى جامعات بلادها، وإن كان زمان الرهائن قد مضى وانقضى.

- أرأيت؟ كل أولئك «أطفال» في السياسة بالقياس إلى مصر الفراعنة يا بنية...

فأجبتها:

- آمنت بالله يا مولاتي، إنكم أساتذة السياسة الأولون.

فقالت:

- وغاب عنك شيء.. غاب عنك أننا شرعنا سياسة «المؤلفة قلوبهم» كما شرعنا سياسة الرهائن... فكان الأمراء الفقراء يتلقون الإعانات من فرعون مصر، سيد العالم، لكي يستعينوا بها على حفظ مظهر الإمارة، فيكون ذلك ثمنًا لضمان ولائهم، وعدم ميلهم مع عدو فرعون

وقت يجد الجد، وأولاء تربطهم بمصر بطونهم، إذا لم تربطهم بها قلوبهم وعقولهم. وكثيرًا ما تكون بطن ابن آدم –بيني وبينك– هي الطريق السلطاني إلى قلبه!.. وقد قيل في الأمثال «اطعم الفم تستح العين» وكان ينبغي أن يقال كذلك: «اطعم البطن ينقد لك القلب».

– مولاتي! ما أشبه الليلة بالبارحة...

آية الله

أول الغيث

قالت الملكة الحسناء بعد إطراقة تفكير، هزت بعدها رأسها الجميل الذي يعلوه تاجها الفريد:

– إني لأعجب من عجيب صنع الله! كل يوم هو في شأن!.

– سبحان الله وتعالى!.. وماذا عجبت من صنعه، وكل صنعه عجيب!

– ذلك الملك الشاسع الذي امتد منطيبة شمالاً ألفًا وثمانمائة من الكيلومترات، وجنوبًا إلى نباتا ألفًا ونصف ألف من الكيلومترات... وتلك الكنوز وذلك الجاه، والسيادة، سيادة لا يكاد يشركه فيها أحد على أرض الله...

– ما خطبها؟

– منأخرجها من طوايا الغيب، وجعلها –بعد أن لم تكن– ملء السمع والبصر؟.

– هو الله.

– أجل، ولكنه يجعل لكل شيء سببًا، أليس كذلك؟.

– بلى! ولكن ليس في هذا للعجب موضع في كثير أو قليل، فأي عجب في أن تكون للنتائج مقدماتها وللأحداث أسبابها؟

- ليس لهذا عجبت من الأمر، فالسببية لا تثير عجب السواد، وإن عجبت لها عقول كبار في تاريخ هؤلاء الناس، وإنما يعجب الناس من سبب لا يرونه من معدن نتيجته. فإذا خرج الشبل من ظهر الأسد لم يعجب لذلك أحد، أما إذا خرج الشبل من ظهر الحصان أو الجمل، فذلك هو العجب العجاب في باب النتائج والأسباب.

- صدقت يا مولاتي! ولكن أين الحصان وأين الشبل، في هذا الملك الذي لم يظفر به أحد من قبل؟

- إن هذا الملك، أو تلك الإمبراطورية الفرعونية لم تقم عن رغبة في الفتح بسبب ضيق وادي النيل وعجزه عن كفاية أهله حاجات المعاش الرغيد، كلا! بل غزيت مصر قبل ذاك.. غزاها قوم من الرعاة، عرفوا بالهكسوس، فاستقروا في دلتا النيل، وكادوا يبقون فيها إلى الأبد، لولا أن صح عزم الكرام من أمراء طيبة في صعيد مصر الحر على طردهم، فتلقفوا الراية كابرًا مقدامًا من بعد كابر مقدام، حتى طردوا من مصر أولئك الرعاة الغزاة... فكانت آية الله!.

وسكتت الملكة حينها، كأنها تفكر وتستعيد، فاحترمت صمتها إلى أن خرجت منه وعلى فمها ابتسامة الراضا بما استعاد من الذكرى.

الآية الأولى:

فقلت للملكة أستحثها على الكلام:

- أضحك الله سنك يا مولاتي.

– إنها حقًا آية الله التي انطوى في ذلك الغزو الهكسوسي الذي ثقل على مصر حينًا، حتى نفضته عنها كما ينفض الجواد التراب عن معرفته.

– تشبيه جميل.. فالجواد حيوان رشيق الحركة نبيل، حتى وهو ينفض التراب.

– يا بنية! لم أستعمل الجواد في ذلك التشبيه عبثًا، فقد كان أهم عنصر استخدمه الله لإتمام آيته في تلك الغزوة، وفي حرب الاستقلال، ثم في فتح الشرق إلى وادي النهرين الأعلى من بعد ذلك.

– وكيف كان ذلك؟

– لم تكن مصر تعرف قبل غزوة الهكسوس ذلك الحيوان المعروف باسم الحصان، ولا عجلة الحرب التي يجرها ذلك الحيوان، إلى أن غلب بهما الرعاة مصر على أمرها، فملكوا وجهها البحري حينًا من الدهر.. ولكن ذلك الغزو كان تافه الأهمية وإن بدا هائلاً مروعًا، بالقياس إلى شيء لم تظهر له أول الأمر أي أهمية على الإطلاق، ألا وهو دخول الجواد أرض مصر، وسرعة تأقلمه فيها، وكثرة نسله وانتشاره في ربوعها شمالاً وجنوبًا، حتى بات الحيوان الأساسي في وادي النيل، بعد أن كان الحمار هو ذلك الحيوان... وتعلم المصريون صناعة العربات أيضًا.

– ما أفطنهم أن يتعلموا سر عدوهم ويحذقوه، فإنه لا يفل الحديد إلا الحديد!

– لا تحسبيهم تعلموا صناعة العربات قصدًا، بل بتلك الفطرة التي ركبها الله في الفلاح المصري أن «يلتقط» كل صنعة بسرعة هائلة.

– صدقت مولاتي! فهؤلاء فلاحونا الأميون يتعلمون بمجرد المشاهدة إدارة آلات الري البخارية، وطرق إصلاحها، بلا تعليم منظم خاص.. وأما سرعة إتقان جنودنا الأميين لدقائق الآلات الهندسية مثل الرادار، فحديث سار كل مسار، وعجب إنسان...

– لقد شاء الله إذن أن يكون الضرر الأكبر، وهو غزو البلاد على يد الرعاة، سببًا في دخول الجواد أرض مصر إلى الأبد، وفي تعلم المصريين صنع عجلة الحرب.. حتى إذا قامت قومتهم للاستقلال، فل الحديد الحديد، وطرد الهكسوس على يد أمراء الصعيد، فكانت هي النافعة الأولى من تلك الضارة الكبرى.

– صدقت مولاتي! ما أعجب صنع الله.. ولو اطلعتم على الغيب لآثرتم الواقع! ولكن أين هذا مولاتي من حديث الإمبراطورية؟

– إنه قريب من قريب.. فبعد أن تم طرد الهكسوس، وتعقبهم ملوك مصر الجدد حتى يبعدوهم عن تخوم مصر.. فوجدوا فلسطين أرضًا مفتوحة لا خيل فيها ولا رجل على وجه التقريب، فتوغل جيش مصر على ساحل فينيقيا «لبنان» متعقبين عدوهم العتيد، حتى تم لهم طردهم بعيدًا وراء تلك الربوع.. وبذلك نبتت عند فرعون فكرة «تأمين حدود مصر»؛ لأن سيناء وفلسطين ليستا حدودًا حصينة بطبيعتها، فوجب الاستيلاء عليها حتى تؤمن حدود مصر نفسها، فأول فتح في الشرق كان لغرض دفاعي بعد تلك الغزوة.. ولكنه لم يقف عند هذا! فقد لمس فرعون تفكك إمارات ذلك الشرق، وتنابذها، وسهولة وقوعها فريسة لغازٍ

آخر يخلف الهكسوس في الأطماع والبأس، فقرر فرعون أن يبسط ظله على تلك الإمارات، ويتوسع في ذلك حتى يكون له ملك عسكري واسع يحمي ظهر مصر، ويفتح عليها ينابيع الرزق.. فتعاقبت أجيال من فراعنة غزاة، أقاموا تلك الإمبراطورية العظيمة التي بدأت مطاردة للعدو، ثم تطورت إلى تأمين من الغزو.. ثم استمرأ الفراعنة الفتح وطعمه الحلو، وما في الملك العريض من أبهة وزهو.

صفحة بيضاء:

فقلت مستدركة، أومعقبة:

– ولكن السيف كما يقولون يا مولاتي ذو حدين؛ إذ ينزف دم العدو، وينبت أكاليل الغزو، فيعقدها على رأس المنتصر، يستنزف أيضًا دم الأمة وأرزاقها.

فأجابت الملكة وهي تبتسم ابتسامة الكبار حين يردون على ذلاقة صغارهم:

– ذلك صحيح، وهو ككل صحيح يتفاوت في صوابه، فليس كل حكم صحيحًا «مائة في المائة»، وهذا الرأي الذي ذكرته نفسه ليست صحته تامة كاملة.

– وكيف كان ذلك؟.

– إن فتح تلك البلاد لم يستنزف من دم مصر شيئًا كثيرًا كما تتوهمين؛ لأن القوى لم تكن متكافئة؛ ولأن عبقرية تحتمس الثالث على الخصوص

حقنت الدماء، وأدنت ثمار النصر بغير ثمن فادح.

- والمال مولاتي؟ المال عصب الحياة؟ هل تتكلف الحملات الحربية الشيء القليل في نفقات التسليح، والتحصين، والنقل، والمؤن، والإمداد؟.

- بل تتكلف كثيرًا.. ولكن هذا عتد بالخير بعد ذلك على البلد الأمين.

- وكيف كان ذلك؟.

- إن إنشاء جيش كبير دائم للفتح وتأمين ثغور الإمبراطورية المترامية كان سببًا في قيام نهضة صناعية كبرى، لصنع آلات الحرب، والحصار، والنقل، وللتموين، والعمارة اللازمة لإقامة الحصون، فازدهرت صناعة التعدين واستغلال المناجم والمحاجر، وقامت المصانع في بقاع من الوادي مختلفة، تصب منتجاتها في «منف» عاصمة الجيش المصري.. واستتبع ذلك النشاط الصناعي انتعاشًا في الحياة الاقتصادية، وارتفاعًا في مستوى الحياة، زاد بعد الفتح بما تدفق على مصر من موارد البلاد المفتوحة وإتاواتها...

- إنها لعمري صفحة بيضاء.

- ولكنها ليست وحدها في ذلك البياض.. فهناك ما هو مثل ذلك أهمية وفضلاً على الحياة المصرية والحضارة المصرية.. هناك صفحة جديدة حقًا في تاريخها.

- وما ذاك؟ يرحم الله مولاتي.

- هذه البلاد التي فتحها فرعون، من غزة إلى أقصى جبل الكرمل من

لبنان، كان سبيل الوصول إليها والعودة منها هو السفن على متن البحر، وبذلك صار لمصر أسطول، وصارت مصر سيدة البحار في ذلك الزمان.

- الله أكبر!

- وصارت الفلك تنقل الجنود والعتاد، وتعود بالخيرات من آفاق تلك البلاد، يعمل عليها تجار من الفينيقيين بشعرهم الطويل المرسل وزيهم الملون الغريب.. أما البحارة فمن أهل فينيقيا أيضًا، ولكنهم ليسوا كخاصة القوم، بل إن شعورهم وثيابهم قصيرة لأنه لا فراغ لديهم للأناقة والتجمل.

وما ذاق المصريون لذة الفتح حتى أوغلوا في الأرض، وما ذاقوا لذة التجارة على متن البحر حتى أوغلوا بالأسطول متاجرين في غير سواحل الإمبراطورية، فهذه «قبرص» تتصل الأسباب بينها وبين مصر، فيحمل الأسطول المصري إلى وادي النيل زيتها وفضتها ونحاسها. وهذه أقريطش «كريت» يحمل منها الأسطول المصري أيضًا صناعاتها وخيراتها، ويحمل إليها خيرات مصر.. وإذ نشطت تجارة البحر، نشطت موانئ التجارة ومراسي السفن، وسادت البلاد موجات من الرخاء، وعرفنا ألوانًا من الاستهلاك لم نكن نعرفها من قبل.. استهلاكًا غذائيًا وصناعيًا... وثقافيًا أيضًا، فقد اتصلت التجارة بين مصر واليونان.

في أعقاب السيف:

فقلت مؤمنة:

– أجل مولاتي! لقد عودنا التاريخ أن تسير في أعقاب الجيش الفاتح موجات مختلفة، بعضها من الأوبئة والطواعين –والعياذ بالله– وبعضها من الحضارة التي تتبادلها الأمم غالبة ومغلوبة، وبعضها من الثقافة المزدوجة والتزاوج، فيكون من ذلك كله خير عميم لمستوى النسل، وتقدم الحضارات، وانتشار الثقافات والآداب.. كذلك كان من فتوح «ذي القرنين» في الشرق كله.

– ومن ذو القرنين؟ قبله وقبل قرنيه بقرون، كان آبائي الميامين! لقد صنع فتحهم للشرق الأعاجيب، فانتشرت الثقافة المصرية، والحضارة المصرية في كل مكان، وصارت مصر بعاصمة ملكها طيبة، وعاصمة جيشها منف، جامعة يتلقن فيها أبناء العلية من تلك الأمم أعظم ثقافة وأعرق حضارة في العالم... فخطت تلك البلاد خطوات جبارة في ركب التمدن والحضارة بفضل الفتح المصري. فلم تكن مصر وحدها هي المنتفعة من هذا الفتح المبين، بل لعل انتفاع الأمم المفتوحة كان لا يقل عن انتفاع مصر بحال من الأحوال؛ لأنها تاجرت مع مصر كما تاجرت مصر معها، ولم يكن حال مصر كحال الأمم المستعمرة في الوقت الحاضر.

وسكتت الملكة، كأنها اعتقدت أني فهمت ما ترمي إليه بذلك التلميح، فلا حاجة إلى بيان صريح.. فاستزدتها، فقالت:

– إن الدول المستعمرة في العصر الأخير تحاول إغراق البلاد المفتوحة بصناعتها ومتاجرها، ولا تأخذ منها مثل ما تعطيها ومن المنفعة.. فثمت حواجز جمركية، وقيود العملة، وما إلى ذلك مما يعين على الاستغلال،

ويوقف تقدم البلاد المحتلة. أما مصرنا يا بنية فلم تعرف إلا حرية التجارة، فأفادت كما استفادت، وحمدت الشعوب المفتوحة لمصر هذا البر وذلك الرخاء الذي أفاءته عليها.

– ولكن أمراء تلك البلاد حريون أم يحنقوا.

– ومن أمراء تلك البلاد؟ لقد كانوا شيوخ قبيل متنابذ تفرقه الأطماع، ودسائس الأمم الكبيرة كأمة الحيثيين والميتاني، فوجد فرعون بينهم، وعلمهم الحرب الحديثة، وجعلهم جبهة واحدة لا يسهل ازدرادها على العدو المتربص... وقد كتب أولئك الأمراء بعد موت تحتمس الثالث في أكثر من مناسبة، مشيدين بفضله عليهم من هذه الجبهة. فمصر القديمة هي أول من أقام حلف الشرق الأوسط، أو جامعة الأمم العربية بمعنى أصح.

فقلت:

– ما أسعد فرعون أبيك بهذا الملك وهذا الفضل الموروث.

– أجل يا بنية!.. لقد ورث إمبراطورية مستقرة مشيدة الأركان عالية الصرح، فقدر أن السلام والأمن هما أعظم النعم الإنسانية، فبدأ يستمتع بما يفيء عليه وعلى مصر ذلك الملك العريض المستقر، فكان هذا الترف الذي لم يشهد العالم القديم له نظيرًا، والذي يشبه بذخ لويس الرابع عشر في زمانكم الحديث في دولة الفرنجة.. فن وترف ونعيم مقيم. ولكن الترف كالدسم الكثير، له مضاعفات تتعب المعدة، والكبد، والأمعاء؛ فسم الدسم من معدن الدسم وليس دخيلاً عليه...

وإذا أصبح المرء أسيرًا لترف لا يتحرر منه بل يستمرئه، تهاوى إلى الانحلال، إذا لم يكن في الحال، فبعد حين.. سنة الله في خلقه...

ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

على مائدة الأجداد:

حقوق البطون:

ومالت الشمس إلى الغروب ونحن نتجاذب ذلك الحديث عن ملك مصر الغابر، وما كان لها من مكانة لم ينلها الأوائل والأواخر، وقد سحرنا ذلك الحديث الساحر وأنسانا مرور الوقت، فقالت الملكة لي وهي تبتسم:

– أما لك بطن يا بنية؟ هذه ساعة ينبغي أن نرتب لأنفسنا فيها شيئًا نأكله.. فما رأيك في هذا؟

– الرأي رأيك يا مولاتي.. ولكن أين نأكل؟ أثمت مطاعم عامة؟.

– في طيبة ولا مراء مطاعم عامة؛ لأنها حاضرة الدنيا، لا ينقطع عنها وفود الغرباء من ذوي الحاجات، أو ذوي المطامع.

– إذن نميل إلى أحدها.

– كلا.. بل نميل إلى مائدة جدي لأمي، تويا، والد الملكة تي، فإنه قد أولم الليلة لمناسبة حفلة الإنعام على المخلصين من القواد العظام.. فهيا بنا إلى قصره، فهو قريب من قصر فرعون هذا.

ودخلنا فإذا سور عال، وباب له عمد كأبواب الهياكل، وساحة تدخل إليها المركبات يجرها جواد واحد، والسياس يأخذون بأعنة الخيل، فيرقى

المدعوون الدرج القليل الارتفاع إلى شرفة يدخلون منها إلى قاعة الاستقبال، يحف بهم منذ أول الدرج عبيد رب الدار، وقد يخرج هو لاستقبال الأثيريين.

ولكن الملكة لم تدخل مع الداخلين، بل قالت لي:

– إن الاستقبال لم يبدأ بعد، وليس هؤلاء الوافدون هم أكبر المدعوين مقامًا.. فتعالي أولاً أدخل بك المطابخ، لترى بعيني رأسك إعداد ذلك الطعام الذي ستتناولينه.

خلف القصر:

فدرنا حول القصر إلى البناء الخلفي، حيث المطابخ، والمخبز، ومخزن المؤن وما إليها.. فإذا ثور إفريقي مسمن حتى أنه لا يحرك قوائمه إلا بصعوبة، يقوده الرعاة فيسلمونه إلى القصابين في رحبة صغيرة أمام المطبخ.

فأقبل القصابون الأربعة على فريستهم الكبيرة، فعقدوا حبلاً حول قدمه اليسرى الأمامية، وقذفوا طرف الحبل من فوق الثور فتلقفه زميل للقصاب الأول فجذبه حتى أكره الثور على رفع رجله المربوطة عن الأرض، وفي هذه اللحظة انقض الاثنان الآخران على الثور، فشد أحدهما قرنيه من الخلف، وقبض الآخر على ذيله، واجتهد القصاب الأول –الذي ربط رجله اليسرى– في رفع رجل أخرى من قوائمه الخلفية عن الأرض. فوقع الثور على الأرض، فاجتمع القصابون على ربط قائمتيه الخلفيتين بالحبل إلى قائمته الأولى التي بدأوا بها.. كذلك أضحى الثور عاجزًا عن إنقاذ رقبته، التي أنحى عليها أشد الفتيان بأسًا، وكان قد شحذ سكينه التي

لا تكبر طول الكف كثيرًا فوق حجر صغير معلق في ثوبه القصير، فأغمدها في رقبة الثور، ثم تلقى الدم في وعاء خاص، فقدمه إلى موظف معين من رجال الدين، من اختصاصه تشمم الدم لفحصه والتثبت من خلوه من الآفات.

ثم بدأت بسرعة البرق، عملية تقطيع أوصال الذبيح على نسق خاص، فلما فرغنا من ذلك المشهد المثير، قالت لي الملكة:

– هذا هو اللحم السمين الذي سيطعمه الناس.. فتعالي الآن إلى جانب آخر من المطابخ.

ومضيت معها.. فإذا طهاة يذبحون من الطير عددًا لا حصر له، بين بط، وأوز، وحمام، وأرانب.. فقلت وأنا أقلب نظري في هذه المجزرة التي تعالت منها الأصوات المتباينة:

– هذا بديع.. ولكن أما من دجاج؟.

– ولماذا لا تسألين أيضًا عن الديكة الرومية؟.

– وهل تحسبينني يا مولاتي أجهل أن الديكة الرومية تعرف إلا بعد اكتشاف أمريكا؟.

– فاعلمي إذن أن الدجاج والديكة لم تكن قد عرفت بعد في عهدنا هذا، في الأسرة الثامنة عشرة.

– واأسفاه.. ولكن أظن أن ماء النيل في عهدكم كان كعهده الآن؟.

– ماذا تعنين بهذا الكلام؟

- أعني أنني أحب السمك كثيرًا، المقلي منه، والمشوي، والمطبوخ في أواني الفخار بفريك القمح..

- ما شاء الله! فاعلمي إذن أن جدي لأمي كاهن من المدققين.. والمدققون من الناس في زماننا لا يأكلون السمك، وإن كان سائر الناس يأكلون بعض أنواع السمك دون بعضها الآخر.. فليس كل إنسان قادرًا على أكل اللحم، فمن ذا من العامة والفقراء يستطيع أن يذبح لطعام أهله ثورًا؟ وبهذه المناسبة: «من أي البلاد أنت في مصر؟».

- من الفيوم يا مولاتي!.

- إذا عرف السبب بطل العجب! إن أهل الفيوم على عهدنا كانوا صيادي سمك محترفين.. والعرق دساس كما ترين، فها أنت تشتهين السمك!.

- والخضر يا مولاتي؟ أي أنواعها سنأكل؟

- أنظري: هذه أكداس من البصل، والكراث، والفجل، والثوم، والقثاء، والفول، والبطيخ، والشمام، والخيار.

- أما من خضر مطهو إذن؟

- كلا! فنحن لم نعرف هذا اللون من الطعام.. ولكنا نعرف اللبن، والجبن، والزبد، ونعرف من الفاكهة العنب، والتين، والبلح، والجميز، والدوم... ودخل مع الهكسوس وجيادهم ومركباتهم شجر الرمان، والزيتون، والتفاح، وإذا لم يكفك هذا، فاعلمي أن ختام المائدة هو

شهد النحل البري، والخرنوب.

- نعمة جزيلة، نسأل الله دوامها.. ولكن كيف سيطهى اللحم والطير؟.

- إنه السلق على نار فحم نباتي يأتينا من بلاد النوبة، ثم التحمير بالسمن ودهن الماشية.. كذلك يطهى معظم لحم الثور، أما الموضع الممتازة فتشوى على أعواد من حديد، فيكون منها ذلك «الكباب» الذي لازلتم مولعين به أبناء النيل.. كما تشوى الطيور على على هذه الطريقة.

- الحمد لله! هذه أصناف لا أستغربها.

- وصنف آخر لا تستغربينه إن شاء الله.. نوع من اللحم المقدد المملح، الذي تسمونه البسطرمة.

- أحقًا؟.

- على وجه التقريب! فنحن نقدد طيور الماء ونملحها، ونقدمها على المائدة لونًا من المشهيات.

- على بركة الله! فهذا والله عشاء حافل.

في قاعة الاستقبال:

وابتسمت الملكة وقالت لي:

- أرى قلبك قد اطمأن.. فتعالي إذن ندخل مع المدعوين إلى قاعة الاستقبال لكي ندخل معهم بعد ذلك إلى قاعة الوليمة.

واستدرنا إلى الباب الأمامي، فإذا الوجوه من المدعويين قد حضروا، كل معه زوجه في أبهى زينة، وأغلى ثياب، وأبهر حلية، في عيونهم الكحل الفاتن، وعلى وجوههن المساحيق العطرة الفياحة.. وإذا مصر هي مصر، بلد التحيات والمجاملات منذ الأزل. فما أكثر عبارات التحية والتبريك

- مرحبًا، مرحبًا!.. بارك آمون فيك، وشرح صدرك بنوره، وأطال عمرك، وأسعد مشيبك، وأعطاك الغنى والعافية، وبارك لك في ولدك ومالك...

وما إلى ذلك من الدعوات الكثيرات المكررة، تتطاير هنا وهناك، حتى يلج الضيف قاعة الاستقبال.. فإذا مقاعد من الآبنوس الفاخر، لها ظهور عالية، وتستقر على أربع قوائم كل منها يمثل أسدًا، هي كلها تحفة في الحفر، وفن النجارة، وفخامة المواد الأولية، وتحلي الظهر والذراعين نقوش بديعة للآلهة، ومناظر الحرب وأمجاد فرعون...

وهذه مقاعد العلية من المدعوين، أما من يليهم فيجلسون على مقاعد بغير أذرع، في شكل علامة ×، تطوى وتفتح ككراسي الشاطيء عندنا، ولكن أخشابها ونقوشها من أجمل وأبدع ما يكون، وتنتهي قوائمها في الغالب برؤوس البط ومناقيرها.

وعلى الأرض حشايا من الدمقس والكتان، يجلس فوقها الشبان الذين لم يتسع لهم مكان للجلوس على الكراسي والمقاعد.

وكان رب البيت في الصدر، وإلى جانبه زوجه، وتحت قدميه كلبه مستكينًا، وقد أغمض عينًا وفتح الأخرى على مألوف الكلاب حين تغفو.

وما استقر المجلس بالجمع، وفرغ معين التحايا، حتى أقبل الخدم والعبيد،

أخلاطًا من أمم الأرض؛ لأنهم من أسرى الحرب في المشرق والجنوب، يحمل كل منهم طستًا وأبريقًا به ماء، لكي يغسل الضيوف أيديهم.. فإن غسل الأيدي قبل الطعام وبعده تقليد مقدس عند المصريين القدماء.

فلما انتهى هذا الواجب، خف القوم إلى قاعة المائدة، حيث أعدت الوليمة الكبرى...

هنيئًا مريئًا.

وقاعة المائدة فسيحة على جدرانها وعمدها صور زاهية الألوان لمناظر الطبيعة وأنواع الطير والحيوان، أبدع الفنانون رسمها متاعًا للعين ونزهة للخاطر، بعد أن كانت رسوم القدامى مقيدة بطقوس الدين ومناظر الأساطير.

أما الموائد فصغيرة كبيرة، منتشرة في أرجاء المكان، وحولها المقاعد بين ذي الذراعين غير ذوات أذرع... وبالقرب منها رفوف عليها آنية الزهر، وسلال الفاكهة، وأطباق اللحم، وقدور الشراب، ونوافل البقل والخضر.. فلم يعرف القدامى تلك الموائد الكبيرة الحجم، وإنما كانت المائدة يجلس إليها اثنان أو ثلاثة من الطاعمين.

أما الأواني الصغيرة فمن خزف جميل النقش، وبعض الصحاف من الفضة المزخرفة، أما القدور فمن فخار، أو من حجر منحوت.. وثمت أيضًا أوان منقوشة من المعدن من صنع سوريا، وإقريطش، وجزر الإغريق.

وقدور الشراب فيها «مريسة» الشعير، أو البلح: وهي نوع من البوظة مصفى، أو إذا شئت فهي البيرة التي يعرفها أبناء هذا الجيل.. ذلك هو الشراب المصري الصميم القديم، ولكن هناك كذلك بنت الكرم من

معتق النبيذ، هدية أوزيريس إلى الناس، ولكن النبيذ الحلو الذي يشبه في حلاوته الرحيق من شهد النحل هو النوع المحبوب لديهم.

وجلس الطاعمون حول الموائد، والطعام كله أمامهم لا يقدم طبقًا طبقًا كما يفعل أهل الغرب، فكل إنسان مفوض أن يأكل مايشاء كيفيما يشاء وحينما يشاء.

وتحرك في حلقي سؤال، وأنا آخذ من طبق شيئًا من الشواء آكله بأصابعي، فلا أدوات للمائدة هناك، متلذذة بهذا الطعام الذي لا يراني أحد وهو ينساب إلى حلقي، فقلت للملكة:

- إن الشواء متقن، ولكن أين التوابل؟ وأن الملح لكثير.

- إنه عوض عن تلك التوابل والأوفايه.. فكلي هنيئًا كما يأكلون.

- والله إني لأرى الغبطة وجوه القوم حقًا... أهي المجاملة؟

- كلا! فالمصري منذ القدم لا يسعد بشيء كما يسعد بالاجتماع مع نفر من الأصدقاء حول مائدة حافلة بما لذ وطاب.

- هذا تقليد جميل احتفظنا به.. ولكن يدهشني حقًا أن أرى اختلاط الجنسين سائدًا لديكم إلى هذا الحد العجيب.

- وفيم العجب؟ لم نكن أمة تعرف الحجاب، وإن كانت ولائم من سبقونا تجعل موائد للرجال وموائد للنساء، ومن آداب الاجتماع ألا يختلس الرجل النظر إلى حيث يجلس النساء في بيت داعيه.. أما في زمن أبي، فها أنت ترين أن ذلك الفاصل قد زال، فالناس أميل إلى التحرر،

ولكن الاختلاط ليس تامًا.. فكل رجل صاحب الحق في الجلوس مع زوجته إلى مائدة واحدة.. ولا تجلس زوجته مع قوم آخرين إلا بإذنه.. ولكن انظري بربك!

– الله أكبر! ما هذه الفتنة كلها؟!

فقد رأيت الجواري يدخلن في ثياب تظهر أكثر مما تخفي، ولا تخفي إلا لتثير الفتنة بما تخفي، ينقلن الطعام من الرفوف إلى الموائد، ويبخرن بالعود بين الجالسين، ويوزعن الزهور والرياحين في ابتسام جميل، حتى أصبح في كل يد عود من الريحان أو الزنبق.. وعلى كل رأس إكليل من الزهر ناصع البياض.

وكان الشراب قد لعب بالرؤوس، فبدأت النكات تتطاير، والضحك يعلو كالرعد القاصف، والقدود تتمايل، والخدود مشتعلة بحرارة الشراب والسرور.. فبدأن الجواري الحسان يعزفن على القيثارة، وينفخن في الأبواق، ويرقصن على حدائها العذب.

ثم ارتفع على الأرغول صوت حنون يغني شيئًا هو أقرب الأشياء إلى موالنا الحديث:

«لب نداء قلبك ما حييت..

«وعطر بالطيب رأسك..

«والبس أفخر الثياب من رفيع الكتان..

«ولب نداء قبلك ما بقيت على الأرض..

«ولا تحرم نفسك من لذة..

«فلكل لذة أوان..

«ولا يرجع ما فات..

«هيهات هيهات...

وارتفع من السامعين الثملين إعصار عاصف من «الآهات» المعهودة حتى هذه الأيام عند «الانسجام»، وتحدرت دموع آخرين، وسكت صوت المغني، لكي يفسح المجال لغناء العيون..

وهل غناء العيون سوى الرقص الموقع على الأنغام؟.

إن الراقصات شبه عاريات، ولكن الرقص لا يشبه رقصنا «البلدي»، بل هو أشبه بالرقص الهندي: تعبير، وشعر، ورموز تخاطب الحس والنفس بما تنطق به اللغة، فليس للذة البهيمية نصيب في ذلك الأداء الجميل.

أما الأجسام.. فلا فضول من لحم وشحم، وإنما هي الرشاقة على آخر طراز، بغير مشد، وبغير افتعال...

واندفع الناس يحيون الراقصات بالشراب، حتى بدأ بعضهم يفقد وعيه..

وأخيرًا، بدأ الغثيان والقيء.. فاستولى علي الفزع، فابتسمت الملكة نفرتيتي وقالت لي:

- هذه أكبر تحية لصاحب المأدبة.. وأعظم شهادة له بالكرم، ووفرة الشراب وجودته..

– رباه! إن هذه العادة ليس أسوأ منها في أيامنا الراهنة إلا تجشؤ الضيف في بعض بلاد الريف في نهاية الطعام، لكي يعلن لصاحب الدار أنه أكل حتى امتلأ وفاش الإناء بما فيه..

وأقبلت الجواري الحسان، والعبيد الوسيمون، يرفعون آثار ذلك «الشكر» لنعمة رب القصر، ويمسحون الأرض والموائد من تلك الشوائب... لكي تستمر المأدبة في صخبها ونشوتها.

فقلت للملكة:

– مولاتي! هيا بنا.. فهذا حسبي من مائدة الأجداد.

المرأة والبيت:

بناء.. وبناء.

وعلى طنف من القصر، بعيدًا عن الصخب والضجيج، جلسنا نتملى جمال الليل الساكن الذي اشتهرت به سماء مصر الصافية، البعيدة الغور، حين ترصعها النجوم، وقد غرب القمر عن الأنظار.

وقرع سمعنا من بعيد، من فلك يجري فوق النيل السعيد، صوت ملاح من أبناء الصعيد، يتغنى بالهوى، والجوى، والحبيب النازح الذي شط به المزار.

«شعرها كالليل الحالك، أو هو أشد منه سوادًا..

«وأشد سوادًا من شعرها الفاحم إنسان عينها الواسع..

«وشفتاها أشد أحمرارًا من العقيق الأحمر..

«ورضابهما أشهى من جنى البلح الرطيب..

«وثدياها تحفتان أحكم وضعهما فوق صدرها الناعم...

«هي منى القلب.. وأنا لبعدها مضنى حزين..

«كم أتمنى أن ألزم الفراش عليلاً..

«كيما تزورني الحبيبة وتضع يدها على جبيني..

«آه كم أنا عاشق...

«وآه كم أنا مدنف في هواها...».

وكنت أرهف أذني لهذا الحنين الساذج الذي ينطلق من أعماق الفطرة الريفية المصرية.. فلما سكن الصوت، وانقطع صداه، إلتفت إلى الملكة متعجبة وقلت:

– كأن الزمان لم يتغير في حياة هذا البلد الأمين من آلاف السنين، فالآهة الحزينة، والحنين إلى الحبيب، وشكوى الهجر والدلال، هي هي لا تزال طابع مصر بعد كل هذه الأجيال.

فهزت الملكة رأسها هزة خفيفة، وقالت:

– هو ما تقولين، فمصر من قديم بلد الحنين والأنين.. وهي أيضًا بلد البناء بأكثر من معنى واحد.

– رعى الله مولاتي! هلا أبانت عما أجملت؟.

– إني أعني المعنى المزدوج للبناء، فالبناء هو التشييد ورفع العماد بعد إرساء الأوتاد.. والبناء هو الزواج لإقامة الأسرة وإنجاب الأولاد، فالمصري مغرم منذ القديم بهذا البناء وذاك البناء على السواء.. فنحن شعب يقدس الأسرة، ويقدس العمارة وإقامة بيوت الحياة والموت جميعًا، حتى لقد كان اللفظ الذي يدل في اللغة المصرية القديمة على إقامة البيت واللفظ الذي يدل على التأهل بزوجة واحدًا بلا اختلاف.

وحواء؟

فقلت للملكة عند هذا:

– ذلك جميل يا مولاتي، ولكن ما كان دور حواء في ذلك البناء؟ وهل هي تشارك فيه بالرغبة الصادقة، والإرادة المطلقة، أم هي سلعة السوق وأثاث البيت، لا رأي لها ولا صوت؟

– بل لها رأي ولها صوت، وإن لم يكن ذلك حالها في جميع الأجيال، فما كل فتى من ذوي القلوب، وما كل فتاة من ذوات الصبوة وأهل الهوى... فرأي الفتاة في بعلها رأي مسموع، وصوتها أيضًا ليس أقل دويًا واسترعاء للإسماع من صوت آدم في هذا المضمار.. فتعالي معي نحث الخطى إلى شاطيء النهر المقدس، حيث يبكر العذارى للسقيا..

ومضينا «والشمس في خدرها أمها، والظل لم يجر ذائبه»، حتى بلغنا حي السواقة، وتجاوزناه إلى أرباض المدينة من أطراف الريف، فإذا صبايا يحثثن الخطى إلى النيل، وعلى رؤوسهن الجرار... والمآزر السود، فهتفت:

– هذه بردة الصعيد، وتلك جراره لم تتبدل.

فقالت الملكة:

– وقلوب أبنائه وبناته أيضًا لم تزل على عهدها الأول.

– ثم ارتفع حداء لطيف النغم في سكون السحر:

«أخي.. قد سبى قلبي صوته العميق..

«آه! كم صوته عريض هذا الأخ الوسيم..

«الذي تجاوز داره دار أمي..

«ليتني معه في داره..

«ولكن لأتركن لأمي تمهيد هذا الوصال..

«بل يا ويح لي! إنه المسئول أن يطلبني..

«وأنا بعد هذا حرية أن أستجيب..

«فتعال يا أخي إلى أمي واطلبني..

«كي أكون لك على شريعة الآلهة..

«وأتبعك إلى الأبد..

«آه يا أخي! يا له من حلم..

«فهلا اقتربت مني كي أشهد جمالك..

إن أبي سيسر بك كثيرًا..

«لأن وسامتك وفراهتك تشرحان جميع الصدور..

«والإجماع على إطرائك معقود يا أخي الحبيب».

وسكن الصوت، وغرد في الأفق البعيد طائر مبكر، أو لعله الكروان.. سلطان المغردين في سماء وادي النيل... فقالت الملكة بعد صمت قليل، كأنها تستمرىء ذلك الصوت الحنون:

– إن الأخ والأخت كنية الحبيب والحبيبة في مصر القديمة.

ولم تكد تتم عبارتها، حتى انبرى صوت فتاة أخرى من سرب العذارى، يتغنى في صوت رخيم بأغنية أخرى من أغنيات الهوى، والشباب، والأمل الحلو:

«مررت بالدار، دار هذا الحبيب..

«فألفيت بابه مفتوحًا..

«وكان حبيبي واقفًا في الرحبة..

«ومن حوله أمه، وأبوه، وأخوته، وشقيقاته..

«وحسنه الباهر يأسر كل عابرة سبيل!..

«فأدبه، وأناقته ليس لهما مثيل..

«بين أبناء الخاصة من أهل الظرف..

«ورشقني «أخي الحبيب» بنظرة..

«يا لها من نظرة!

«فاختلج جسمي كله بالفرحة الطاغية..

«وتمتعت وحدي بهذه النشوة الحلوة..

«لأنني كنت وحدي حين عبرت الطريق..

«أمام باب الأخ الحبيب..

«لله كم انتشيت بتلك النظرة!..

« فليت أمك يا أخي عرفت مكنون قلبي..

«إذن لحثت الخطى إلى دار أمي..

«وطلبت إليها قرب النسب..

«فأذني أيتها الآلاهة التي ترعى المحبين..

«والهمي أمه هذا العمل الصالح..

«حتى يتسنى لي عندما أرى أخي الحبيب..

«أن أعدو نحوه أتشمم رائحة العطر..

«ولا أمر هكذا بعيدًا في فرحة مكتومة..

«هي أشبه الأشياء بخلسة المحروم!».

وتندت عيناي بالدموع لهذا النشيد الساذج الصادق، فقالت لي الملكة وهي تبتسم:

- إن الشباب جميل كالأحلام..

- أجل، وفارغ سريع الزوال كالأحلام أيضًا، ينخدع بها الحالمون..

فقطبت الملكة حاجبيها وقالت:

- صدقت لو أن الشيخوخة أكثر دوامًا، وثباتًا، وحقيقة من هذا الشباب الذي تزعينه فارغًا سريع الزوال! كلا يا بنية! لا عيب في الشباب إلا أنه طيش عن المعالي، وينشغل بغرور القوة والحيوانية فيه، وإشباع نهمه إلى اللذات... أما الشباب فحبذا هو، وإنه لعمري بمنزلة الربيع من الزمان، لا يعدله في العمر زمان.. وإنما ينعي الشيوخ على الشباب الجهل لا قوة الإحساس والحيوية.. فهي الرغبة في جمع شيئين متباعدين: القوة، وحكمة المراس.

فقلت للملكة:

– لقد سمعت صوت حواء، تترجم عن قلبها.. ولكن هل للقلوب حقوق في هذا العهد السحيق؟

– أجل! فكثيرًا ما يحترم الآباء رغبات البنات والبنين، إذا عرفوا أنهم متحابون، فلا يكرهونهم على ما لا يريدون إلا أن يكون مانع من موانع التقاليد وأوضاع العرف.

– وبعد الزواج يا مولاتي، هل تخفت أصوات الهوى ونشيده الحلو النغمات، ويبطل ذلك الغزل الرقيق ليحل محله الواقع العملي العري عن الطلاء والتزاويق؟

– لا! فالزوج العاشق يظل ينادي زوجته «يا أختاه»، وهي تناديه أيضًا «أخي».. ويظل التعاطف الجميل بينهما سائدًا.

– لعلها مرادفات اللغة، فهل كلمة أخت تعني الزوجة، وكلمة أخ تعني الزوج؟

– كلا! فإذا كانت قضية في المحكمة لم يستعمل هذان اللفظان بذلك المدلول التدليلي، وإنما يقال زوج ويقال زوجة («هاي» و«هيميت»).

مراسم الزواج:

فقلت للملكة:

– ومراسم الزواج يا مولاتي؟

– أبسط ما يكون.. وحسب اتفاق الآل من الطرفين، وأهم ما فيها «زفة

العروس» من بيت الفتاة إلى بيت الفتى، ومن حولها الأهل، والصحب يحملون الهدايا والألطاف. فليس في حياة المرأة إلا موكبان حافلان: موكب الزفاف إلى الزوج، وموكب الزفاف إلى القبر، وفي كليهما يحمل الأهل والأصحاب الهدايا والتحايا، زادًا للعروس في دنياها أو أخراها.

- أما من عقد مكتوب؟

- هناك سجل لعلية القوم من آل فرعون في قصره، يكتب فيه الكتبة ذلك الحدث العظيم، حفظًا للأنساب من الاختلاط والنسيان.

- أما من بركة من الكهان؟.

- أجل! يمر العروسان وأهلوهما بالمعبد، فيقدمان القرابين طلبًا لليمن والخصب من آلهة النسل الخصيب...

داء قديم:

فقلت للملكة في استبشار:

- أكاد أجزم من هذا الذي سمعت وعرفت أن المرأة كانت عالية المكانة، تتمتع باحترام كاف، وللرجل فيها رأي حسن.

- لا تجزمي! فسوء رأي الرجال، ولا سيما الكهول منهم، في المرأة داء قديم، فالأدب الفرعوني لا يترفق بالمرأة كل الترفق.. فهي موصوفة فيه بالتفاهة، والنزق، وخفة العقل، وسرعة التحول، وتقلب الأهواء. يخدعها ظاهر الأمر، ولا تحتفظ في صدرها بسر.. تحب الزهو، وتضحي في سبيله بأثمن الذخر، ولا تبالي في سبيل شهوة الساعة بالسمعة

والطهر.. تكذب ارتجالاً، وتنافق على السليقة، وتحب الخيانة ولو استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فقلت للملكة:

- صدقت مولاتي، إنه الداء القديم.. ولكني أرى المسئولية فيه عليكم معشر الأجداد لا علينا، فقد رسخ في نفوس المحدثين بالعادة الموروثة ذلك الرأي القبيح في المرأة، والناس على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل.

- أصبت! ففي آدابنا أسطورة مأثورة، أحسبها لا تزال قائمة في الأسماع هي بعينها، أو نظائر لها من قبيلها ومعدنها.

- وما ذاك يا مولاتي؟

- قصة «بيتاوو» الفتى العف، وامرأة أخيه الكبير ذات العرض المثلوم، والعفة الرقيقة والمكر السيء.

- أسمعينيها مولاتي مشكورة.

- زعموا أنه كان فيما مضى من الزمان أخوان متحابان، ربى أكبرهما أخاه اليتيم، واسمه «بيتاوو»، حتى كبر وصار فتى فارهًا. وحان أوان انحسار ماء الفيضان عن الأرض، وآن أن يبذر فيها الحب، فمضى الأخوان إلى الحقل، ولكن الحب نفد منهما، فعاد الأخ الأصغر "بيتاوو" إلى الدار، فحمل على كتفه غرارة ثقيلة من البذور كأنها شيء خفيف الحمل، فسر منظره قلب زوجة أخيه، وتحركت في أعماقها الشهوة الخبيثة، وطعنت

عليها تلك الرغبة الجامحة، فقالت له: «دع هذه الغرارة عن ظهرك يا بيتاوو، وتعال اضطجع معي ساعة أو بعض ساعة.. تعال، وسأحيك لك ثيابًا جميلة».

– فأبى الفتى أن يجيبها إلى ما طلبت، وقال لها: «إنك حرام عليّ كظهر أمي.. وزوجك منيَّ بمنزلة أبي.. فلا تذكري هذا لي مرة أخرى، وسأكتمه أنا عن كل إنسان»، وتركها خجلى محنقة، ومضى إلى الحقل؛ فاتهمته عند أخيه بأنه راودها عن نفسها فاستعصت عليه، وكان هذا الأخ أحمق فقتل أخاه العف.

– رباه! كأني بهذه الأسطورة وقد سمعتها في صياغة أخرى، وإن كان الجوهر واحدًا.

– ربما... ولكن للأسطورة بقية.

– وما هي يا مولاتي؟.

– لقد قتل بيتاوو مظلومًا، فبعثته الآلهة، فعاش في الفقار بعيدًا عن النساء وكيدهن.. فكفاه ما لقى من ذلك في حياته الأولى، فرقت الآلهة لوحدته وخلقت له امرأة شارك كل إله في خلق بضعة منها، فجاءت آية في كل شيء... ولكنها امرأة بعد كل شيء! فسرعان ما خانته خيانة فاحشة بعد أن أوسعته عصيانًا وشكاسة، فتركها وتمنى على الآلهة فجعلته ثورًا لينجو من تعقبها وكيدها. وكانت هي قد وصلت بالجمال والدهاء إلى سرير فرعون، فجعلت في ساعات الصفو تغريه أن يذبح ذلك الثور الجميل، فتمنى على الله أن يحيله شجرة، فسعت جهدها أن

تجتث تلك الشجرة إمعانًا منها في التنكيل به.

– يا لها من أسطورة!

– وهي إلى هذا صورة صادقة لقيمة المرأة في نظر المصري القديم، إذا ارتفع عن عينيه نقاب العشق الجارف، فالمرأة مجتمع الرذائل، ولا وفاء ولا أريحية إلا في الرجل...

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– إن القلة الفاسدة من النساء هي سبب هذا الرأي القبيح في المرأة المصرية، فالزنا كان ولا يزال من أقبح العيوب، وعقابه عند الفراعنة القتل وإلقاء الجثة للكلاب، حتى لا يتسنى لها بعث جديد في الحياة الأخرى.. أما المرأة الفاضلة، فتاريخنا حافل بالتغني بها وتمجيدها.. وكم من قبر شيده أرمل لزوجته المتوفاة وسجل على جدرانه حزنه العميق عليها وتعلقه بها... فليس في الفراعنة ذلك الحياء الذي يذكره الشاعر العربي جرير بن الخطفى في رثاء زوجته:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك، والحبيب يزار...

فمن المصرين القدامى من كتب عن نفسه أنه ظل ثمانية أشهر لا يذوق النوم والطعام إلا كارهًا؛ لأن زوجته كانت مريضة، وكان هو مضطرًا لمرافقة فرعون في سفره البعيد، حتى إذا عاد ووجدها ماتت ألقى بوجهه على الأرض فمرغه في التراب أمام قبرها جزعًا على فراقها.

– أكرم به من وفاء!.. ولكن هل كان الفراعنة على سنة التعدد؟

– ملوكهم أجل.. أما الناس فيندر أن يجمعوا بين أكثر من زوجة واحدة، وإن كان ذلك في ذاته ليس محرمًا تمام التحريم.

أكبادنا على الأرض:

فقلت للملكة:

– والأولاد يا مولاتي؟.

– المصري هو هو.. مغرم بكثرة الولد، يعزه،ويدلله، ويزهو به... فهو يأخذ ابنه الطفل معه في المحافل، ويصحبه في عمله مزهوًا به.

– صدقت مولاتي!.. فكم من بائع خضر جائل، أو سائق عربة نقل يجرها حصان أو بغل، يصحب ولده الطفل ويجلسه إلى جواره، ويجعل في يديه الصغيرتين عنان دابته.

– ذلك يا بنية شأن الفلاح في الدنيا قاطبة.. فالولد هو امتداد الأب في الدنيا، وأمله في التغلب على العدم، والموت، والنسيان، وليس في الدنيا ما هو أشرح للصدر من منظر راعٍ عجوز وحفيده إلى جواره، يرفع الجرة إلى فمه ليسقيه إذا ظمأ؛ ولأن الابن امتداد للحياة، ووارث للعمل والحقل والاسم، كانت الفرحة بالذكر أشد من الفرحة بالأنثى عند الميلاد.. فالولد هو الذي يعنى بدفن أبيه، وبصيانة قبره والسهر على راحته في الحياة الأخرى.. ولكن ليس معنى هذا أن البنت كانت منبوذة، كلا! فهي ريحانة البيت، وسترين أي مكانة كانت لها في الأسرة على عهد ملكي وزوجي أخناتون.

– لقد كاد النهار يطلع يا مولاتي، فهلا دخلنا القصر لنشهد يومًا من أيام الحريم في قصر أبيك العظيم.

– إنه لرأي وجيه.. فهيا.

حريم فرعون

محراب حواء

قالت الأميرة ونحن نهم بدخول جناح الحريم في قصر أمنحتب الثالث والدها، عزيز مصر وفرعونها:

– سنبدأ يا بنيتي بمحراب حواء...

– محراب حواء؟.. وهل لها محراب يختلف عن محراب الرجل في عصر فرعون؟.

– أجل، وفي كل عصر.. فمحراب حواء يا بنية الذي تستقبله إذا طلع الصبح، وتستقبله إذا جاء المساء، هو ديوان زينتها، وزخرفها، وحليها.

ودخلنا ذلك الديوان، أو ذلك المحراب، فإذا سيدة ممشوقة القوام، بيضاء البشرة في حمرة، وقد جلست في مقعد ذي ذراعين، له ظهر عال، وفي يدها «مرآتها»، على هيئة قرص من الفضة المصقولة، ولها يد من الآبنوس المطعم بالذهب في صوروة أعواد البردي...

وأما الوصيفة المكلفة بالتجميل فمنهمكة في جدل غدائر رفيعة من شعر سيدتها القصير، كما هو معهود في شعر نساء هذا الجيل، وقد رشقت الشعر الذي لم تضفره بعد بدبوس من العاج.

وذلك عمل يطول، ويلزم له الكثير من الأناة والصبر، وهو على السيدة التي لا حيلة لديها في هذا الانتظار من قراءة مثلا... ولهذا رأينا فتاة تدخل فتصب لها كأسًا من نبيذ، تحسوه السيدة في تلذذ، ثم تأخذ

الفتاة في الغناء والعزف لتدخل السرور على سيدتها.

وأقبلت بعد لحظة عاملة الأظافر، فجعلت تصقل أظافر القدمين وأظافر اليدين، ثم طلتها بدهان يشبه مثيله من أدهنة الأظافر في هذا العصر.

فلما فرغت الحلاقة من تصفيف الشعر، انثنت نحو الوجه تدلكه بالعطور المختلفة والزيوت، من آنية من المرمر الملون مختلفة الأشكال.. ثم أخذت شيئًا من الكحل في مرود فكحلت عيني سيدتها، وجعلت لهما ذلك الشكل اللوزي المأثور.

وعندئذ انتهت مهمة الحلاقة.. فانحنت بين يدي مولاتها، وتركت المكان للوصيفات ليتقين للسيدة ملابسها وحليها ذلك النهار.. فبدأن يضمخن جسمها وصدرها وذراعيها على وجه الخصوص بعطر عريق الطيوب. ولم أملك نفسي أن أصيح:

- ياله من عطر!.

فقالت الملكة:

- وهل أدهشك أمر العطر وحده؟.. أنظري إلى القوارير.

فنظرت، وفغرت فمي:

- رباه! إنها من زجاج ملون!

- أجل! فقد عرفنا الزجاج الملون قبل العالم الغربي بآلاف السنين.. وصنعنا منه هذه التحف الغوالي، والآن انظري مغرفة الطيب هذه.

ونظرت، فإذا هي ملعقة من خشب ثمين، مقبضها على هيئة أعواد

الزهر، وعليها غطاء إذا انطبق غدت مثل برعم الوردة، وإذا انفرج كانت أشبه بزهرة متفتحة... فلم أملك نفسي أن أهتف مبهورة بهذا الإبداع:

– تبارك الله فيما خلق!

– والآن انظري! هذه شفوف من رقيق الكتان، يكاد لا يرى، ولكنه متين إلى أقصى حد.

ولبست السيدة هذا القميص الشفاف، ومن فوقه ثوب كثير التعريجات ناصع البياض شفاف كذلك، ينعقد على الثدي الأيسر، كاشفًا عن الثدي الأيمن، مفتوحًا مما دون الخاصرة إلى أسفل حتى القدمين.

وبعد ذلك حل دور المشرفات على الحلي والجوهر، فألبسن السيدة أساور في الذراعين والمعصمين، وخواتم ثقالاً في أصابع اليدين.. ثم زين الشعر بأمشاط مرصعة بالؤلؤ والياقوت، وحلين الرقبة بالقلائد المصنوعة من ذهب النوبة.

حتى إذا انتهت الوصيفات من ذلك، على عزف القيان وغنائهن، رجعت السيدة النظر في المرآة، حتى رضيت عن نفسها، فصرفت الوصيفات بإشارة من رأسها.

فقلت للملكة:

– من السيدة؟

– إنها بنت ملك، وزوج فرعون.. إنها بنت صاحب النهرين: هي «جيلوخيبا» بنت «دوشراطا» ملك الفراتين من أقصى الشرق.

- ليت شعري، أين أقصى شرقكم من أقصى شرقنا الآن!؟.

- صدقت.. ولكن أي خير في ترامي الآماد إذا كثرت بها الأحقاد، وشقى باتساعها العباد؟ ما علينا!.. أتدرين بكم جارية زفت هذه الزوجة الأثيرة إلى فرعون؟ ثلاثمائة وسبع عشرة جارية من أجمل نساء المشرق كافة... كلهن صرن حظايا يتداولهن فراش فرعون مع الحظايا الأخر والزوجات بنات الأسر.

الملكة العظمى

فقلت وأنا مبهوتة مذعورة:

- وأمك الملكة تي، ما مكانها من ذلك الحشد الهائل من الإناث؟.. لا عجب أن تضيع بينهن ويضيع أثرها.

صورة الملكة «تي» والدة نفرتيتي

- لا وأبيك!لم تضع مكانتها ولم يهدر قدرها!.. لقد بنى بها وهو بعد فتى حديث عهد بعرش لم يصل إليه إلا بفتوى الكهان وأسطورة ولادته لآمون كبير الأرباب.. تخيرها قلبه من بنات هذا الشعب، مصرية لا شك في مصريتها، من أب كاهن، وأم من سلالة كهان... فرفعهما وأعلى شأنهما، وجعل لهما المقام الأول فوق هذا الوادي المقدس.

- لقد أشاع قوم أن «تي» من بنات ملوك المشرق، مما يلي الفراتين.

- كذبوا وما صدقوا.. فهي مصرية خالصة المصرية.

- ولكن هل تسنى لابنة الشعب أن تتكيف بحالتها الجديدة، فتصير أهلاً

لهذا المقام الذي لا يدانيه مقام؟

– عجبًا لنفوس بني الإنسان! إن من بنات الشعب من أهلهن القدر للملك، وهيبته، وسماحته.. وإن من بنات ذوي التيجان من ترينهن فتحسينهن –مظهرًا وشارة وحديثًا– من أعم العامة.. وليس هذا شيئًا نادرًا في أي عصر من عصور التاريخ.

– هذا حق يا مولاتي.. وقد شهدنا مصداقه في كثير مما ترامى إلى سمعنا في هذا العصر الأخير.

– يضاف إلى هذا أن «تي» وهبت من جمال الروح، ورجاحة العقل، ونفاذ النظرة في كل أمر، ما جعلها كاملة السيطرة على ذلك الزوج العجيب، فهي عنده ريحانة القلب، ونزهة العقل والخاطر، وميناؤه إذا عصفت العواصف أو أصابه السأم من التجوال في بحار الملذات. فلم تكن كضراتها متاع جسد وعليقة غريزة... فالغريزة عمياء، والجسد لا يميز الخبيث من الطيب؛ لهذا كثر تجوال أبي لأنه كان رجلاً منهوم الغريزة، حتى قيل عنه أنه رجل لا يمل النساء، ولعمري أنه ليس في الآراء رأي أخطأ أو أفسد من هذا الرأي البدائي!

– ويّ!.. آلاف النساء يملكهن، ولا يقال أنه رجل لا يمل النساء؟

– نعم! فالذي يتنقل بين الأشياء من جنس واحد، ولا يستقر عند واحد منها فقط، رجل ملول لهذه الأشياء، يبحث أبدًا عن شيء منها لا يمله ولا يضيق به.. ولكنه لا يجده أبدًا!

– يا له من تأويل!.

- أما أمي الملكة العظمى «تي» فلم تكن ضمن «مقولة» هذا الحشد من الإناث، فهي وحدها كانت «إنسانًا»، كانت واحة قلب فرعون لا حان خمره ولا ماخور تبذله. لهذا وقف عندها وأخلد إليها، ولكنها لم تعصمه بهذا الإخلاد والاطمئنان المستقر عن طلب «الإناث» طلبًا لا يفتر؛ لأنها لا تغني عنهن، كما لا يغنين عنها!.

- يا له من تحليل.. أو تعليل...

- بل هو علم اليقين.. فما رأيت أمي محزونة قط لما ترى من ولع أبي بالإناث، فما كانت تراهن مثلها ولا ترى نفسها مثلهن، وكانت تدرك أن الفارق بينها وبينهن في الفطرة وفي وجدان أبي فرعون واضح راسخ.. فلم تغر، وربما كانت عونًا له على بعض ما ينشده من لذة في هذا الميدان توكيدًا لترفعها عن منافستهن، وعلوها عن دركهن مهما علا نسبهن واستطال، وفيهن بنات الملوك والأمراء. أما أبي، فكان توكيده لهذا المعنى سافرًا واضحًا، فما بنى ببنت صاحب النهرين وبأخته من قبلها إلا سجل وثيقة ذلك الزواج وتذكاره الرسمي، مكانة تي ومقامها الأسمى، وأنها كانت حاضرة على رأس الحفل، وسجل كذلك حضور والديها الكريمين، ليعلم من لا يعلم أن أي زواج لن يبلغ زواجه من تي، وأن صلته بها أرقى من كل صلة يعقدها، وأن «تي» هي الجوهر الباقي وما عداها بهرج لا يبقى، فهي كالأم من فرعون؛ لأنها ملاذ الروح والفؤاد، وليست مجرد ضجيعة فراش ساعة من ليل أو ساعة من نهار.. فهل كنت تريدينها بعد هذا أن تغار؟

- لا والذي نفسي بيده!.. ما من امراءة ذات قلب كبير وذوق مرهف أوتيت برهانًا على مكانها عند زوجها كما أعطيت تي وسط هذا الحريم! إنها لعمري حرية أن تزهو وليست قمينة أن تغار.

- كذلك كانت أمي! لا تنزل بنفسها إلى منافسة هاتيك الإناث، وتزهو بعلوها فوقهن جميعًا بمقامها في الدولة، ومقامها في قلب فرعون... فهي التي تبدو معه في المحافل الكبرى، وتتزعم معه المراسم، وتستقبل معه وفود المصاهرة من كل قبيلة في الشرق. وأما أبي فقد انطلق على سجيته، لا يهتم بأحد من زوجاته وسرياته الأخريات؛ لأنه لا يمنع عن شيء من ذلك متى اشتهاه، فلا يتعلق بواحدة منهن، ولكن يطلب المزيد دوامًا. فأهم ما يطلبه من أمراء ولاياته وسفراء عرشه في الآفاق أن يتخيروا أسراب العذارى الفاتنات، فمبلغ إخلاص الأمير أو الحاكم عنده هو مقدار تبريزه في «توريد» هذه البضاعة من اللحم الأبيض.

- إنه فساد الحكم وضياع النخوة!

- هو ذاك! فجزية الولايات كان معظمها من عذارى الولاية، وسبيل الترقي هو هذا الباب الواسع إلى مخدع فرعون، وسبيل المهادنة والحلف السياسي هو تقديم ملك الدولة الحليفة إلى أمنحتب الثالث ثلاثين أو أربعين عذراء حسناء بكرًا... فهذا «أرشيف» وزارة خارجيته لا يحفل بشيء كما يحفل بأوامره إلى أمراء «أورشليم» و«جيزر» وأمراء سوريا في طلب «ترحيلات» من ذلك اللحم البشري الطازج! ذلك عدا الأميرات من بنات ملوك بابل وآشور وغيرهما.. حتى لقد يجمع بين الأميرة وعمتها

أخت أبيها... ولا يدخر في سبيل تلك الزيجات الملكية نفقة ولا بذخًا، بين مهور واحتفالات.

- لعمري إن هذا لهو السفه بعينه.

- نعم وا أسفاه! ولكن فرعون كان حريصًا على شيء واحد: فهو لم يرض أبدًا أن يبادل ملوك الشرق صهرًا بصهر، فلم يقبل تزويج بنت من بناته لملك بابل، مصرحًا في غير مواربة أن بنت فرعون لن تعطى قط لغريب!

فقلت للملكة:

- جزاه الله خيرًا! فلو فعلها لكانت لتلك الدول في عرش مصر من بعده مطامع قد تنجلي عن مواقع ومعارك، ولكن الله سلم.. بيد أني أتساءل عن ثمرة ذلك الحريم الضخم.

- وفيم السؤال؟ إنه لم يجعل في حريمه مقامًا يضارع مقام الملكة العظمى تي، فنسله منها هو خلاصة الخلاصة، وهو وحده الحقيق بالذكر والعدد.

- وكم بلغ يا ترى؟.

- لم يبلغ كثيرًا بلغة الأرقام.. فلم يعش لأمنا تي إلا أنا، وأخوان هما تحتمس وأمنحتب.. ثم مات تحتمس وعاش أمنحتب ليحفر اسمه في التاريخ بحروف من نور، حين بشر بإله واحد نور من فوقه نور.

مجتمع النقائض

تلاقي الأضداد

قلت للملكة عند هذا:

- إنه لخزي ليس بعده خزي أن تتحول الدولة إلى مهرجان شخصي، وإني لأستمحي جلالتك عذرًا في هذه الصراحة.. فقد انقضى كل شيء، ولم يبق من هذا كله إلا ما يعتبر به المعتبر.

فقالت:

- هو ما تقولين، وأكثر مما تقولين، فليس أفدح الخطب أن تكون الدولة أداة مجد شخصي، أو أبهة، وزينة، وزهو للحاكم.. فذلك وحده يهون وإن لم يكن من الهنات الهينات، وإنما الخطب الذي لا خطب يعدله: هو التغير الذي يطرأ على تكوين النظام الاجتماعي والعرف الخلقي في الأمة بسبب هذه السياسة التي يجري عليها مثل ذلك الحكم.. فإذا كان فرعون رأس الترف، والبذخ، والأبهة، فعلى سنته يجري الخاصة وأهل النفوذ من رجال الدولة ووجوه البلاد... فيرتفع رأس القصر، ويشمخ بأبراجه إلى أعنان السماء، ويتلاقى معه الكوخ المتداعي الجدران في صعيد واحد. فإنه لا يكثر الذهب في موضع إلا لقلته في موضع آخر، ولا تكثر التخمة في بطن إلا إذا طوى بطن آخر على جوع وحرمان. فإذا قلنا عصر الأبهة فقد قلنا أيضًا عصر الذلة

والمسكنة، وإذا قلنا عصر الترف، فقد قلنا عصر الحاجة والفاقة، وإذا قلنا عصر الملذات وإطلاق العنان للشهوات، فقد قلنا عصر الرقيق، تباع فيه الأجساد بدريهمات أو لقيمات، ولا شغل فيه للمحرومين إلا الترفيه عن المترفين، فهو عصر النور والظلام، وعصر الحرية والرق، وعصر القوة والعجز، وعصر الرخاء والفاقة... إنه ملتقى الأضداد.

فقلت للملكة، لأهون عليها خطبها:

- مولاتي! إنه داء أصيل في كل بلد وكل مجتمع، أن تكون فوارق بين الناس في الرزق، وفي الصحة، وفي الوسامة، وفي الحظوظ...

فقالت الملكة في حرارة تكاد تشبة الحدة:

- وهل قال أحد بتحريم الفروق، أو رفع أسباب المباينة؟ إن الكون لا ينتظم إلا بتلك الفروق، ولكنه يختل أيضًا إذا زادت على حدها المعقول، فنحن لا نعيب على زماننا ذاك إلا أن الفروق قد تضخمت نتيجة للاختلال النفسي والخلقي، لا أنها سبب اختلال الأخلاق والضمائر كما قد يتبادر لبعض الأذهان.

- عفوك مولاتي! لم أحسن فهم مرماك من هذه العبارة الأخيرة.

- أمرها يسير: فالناس منهم من يرى اختلال النفوس والأخلاق والذمم ناجمًا عن اختلال التوازن في الأرزاق والخطوط،وهذا خطل في الرأي ليس مثله خطل؛ ذلك أن اختلال النفوس والضمائر هو الداء الأصيل الذي ينجم عنه اختلال التوازن في الأرزاق في المجتمع الواحد.

– وكيف كان ذلك؟

– إن حب الذات، وتقديم الملذات ومظاهر الأبهة على ما ينبغي من العدل والنزاهة والعفة، هو الباب الذي ينفذ منه الوصوليون إلى الغنى والنفوذ، فيحرم الضعيف من حقه القليل، ويثري على حسابه الأقوياء، ويسري بين أهل الحكم نوع من التواطؤ على أكل حقوق المستضعفين، لما بين أهل الحل والعقد من منفعة مشتركة وتواطؤ على الاغتصاب والكسب الحرام، فتضيع ثقةالناس في عدل الحكومة، ولا يفلح مجتمع تضيع الثقة في نظامه قط... مهما بلغ حسن مظهره، وخلب الأبصار بريق ذهبه وجوهره.

– ذلك والله فصل الخطاب في موطن الداء من كل مجمتع أصابه ذلك المصاب، فالعدل أساس الملك، والثقة بالعدل أوجب من العدل.

الأصيل والدخيل

فقالت الملكة مستدركة:

– ولكن اختلال التوازن، وفساد الذمم، وضياع الثقة عند القائمين بالأمر ليست مبلغ الداء في ذلك الزمان، فتلك الفتوح التي كثرت واستقرت تسربت منها إلى مصر معتقدات جديدة، وصور فكرية وعرفية لم تعهد في البلاد من قبل، وأدرك المصريون أن آلهتهم ليست الآلهة الوحيدة، وأن معتقداتهم ليست وحدها ذات القيمة والرسوخ في السرائر، فتزعزع اليقين الأعمى، وتفتحت العقول الساذجة، ونشأت «فكرة العالمية» بعد أن كانت القومية دينًا لا يتصور الناس سواه.

ثم سكتت الملكة لحظة وهزت رأسها مبتسمة، فقلت:

- أضحك الله سنك يا مولاتي!

- أمر خطر لي في مفارقات أحوال بني الإنسان: ففي ظلال العالمية تنشأ الفردية.. وهي في ظاهر الأمر نقيضها الذي لا يجتمع معها؛ ذلك أن الإنسان إذا آمن بالعالمية قل ارتباطه بالمحور القريب من قبيلة أو أمة، وأدرك أن «الفرد» هو وحده النوع كله وليس مجرد جزء من شعب، فكل فرد «عالم» بذاته فيه انطوى العالم الأكبر، ومن العالمية التي تنطوي على الشعور بالفردية ينشأ التحرر الديني، والتحرر الفكري، كما تنشأ الأنانية، وينشأ الكفر بما تمثله الأديان القديمة... وبين ذلك وبين الكفر بكل ديانة على الإطلاق خطوة واحدة، وهذا هو ما جعل الناس يعبدون شهواتهم ساخرين عمليًا من نواهي الدين وفضائله.

بين المعبد والقصر

فهتفت:

- عجبًا! لقد أقام الكهان من سدنة آمون هذا الفرعون على العرش، فهل يكون هو عينه سبب بوار ذلك الدين؟

- أجل.. تلك مفارقة أخرى في بلد المفارقات، وقد عجب لها كهان آمون وسخطوا. ولكن ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا؟.

- أليس من يولي قادرًا أن يعزل؟

- ليس دائمًا! فإن من يفتح القمم فيخرج منه الجني لا حول له بإعادته

إليه متى شاء... إذا كان الجني أريبًا حصيفًا، وكان فرعون أريبًا حصيفًا، وماذا كان كهان آمون فاعلين بعد أن قالوا أنه ابن آمون؟ وماذا يقولون والعرش مقدس مصون، لا يخلع شاغله ولا تمس ذاته؟.. فما بالك وفرعون يغدق العطايا بغير حساب، حتى يجمع حوله أهل النفوذ كافة، ودانت له جميع الرقاب في زمن بيعت فيه الضمائر ورخصت فيه الذمم، وأصبحت الغيرة على الحق شيئًا مضحكًا سخيفًا، أو ضربًا من السفه والبلاهة!

– هي الأبهة والملك العريض إذن، ومن تحت ذلك كله جسم عليل، اجتمعت عليه الأدواء التي يتعارض علاجها.

– وحتى هذا الملك العريض يا بنية لم يكن كأمس صرحًا ثابت الدعائم، وإن بدا في شموخه ولألائه كأمس وأبهى.. فإن الإخلاد إلى الترف، وتكليف الأمراء والولاة جباية المال، وتجنيد الأبكار لإشباع شهوات فرعون، قد سمح للانحلال أن يدب إلى ذلك الصرح فيتصدع شيئًا فشيئًا، وفرعون لاه عن ذلك كله، يعالجه بالسكوت والإغضاء استبقاءً للراحة، فليس يعنيه من بلاد الإمبراطورية إلا ما يأتيه من سمنها، وعسلها، ولحمها الأبيض! فالغفلة والشهوة طابع ذلك العصر المنكود.

والعتاد والأجناد؟

فصحت في دهشة:

– والعتاد يا مولاتي والأجناد؟ ماذا صار من أمرهم في ظل هذا الفساد؟

– مفارقة أخرى.. فالجيش قد صار ملاذًالأبناء البيوت الوسطى، يجدون

في خدمته شرفًا لا يصلون إليه في الخدمة المدنية.. فاحتفظت ألوية الجيش بذخيرة طيبة من كرام الناس ذوي الخلق والمباديء، وإن بقى عمل هذا الجيش العتيد هو المشي في المواكب والمحافل.

– الله أكبر!

– أإلي هذا صار جيش فرعون وسيفه البتار؟.

– أجل.. وفرعون نفسه الذي كان يسبق الصفوف في حومة الوغى كأنه إله الحرب شجاعة وبأسًا، تحول على سنة الترف تحولاً طبيعيًا، فصار السيف الصقيل والسهم المريش لا يضرب في صدر العدو... وإنما في قرن بقرة من بقر الوحش، أو أيل من أيائل الصحراء، أو تيس من تيوس الفلاة. لقد انقلب القائد صائدًا.. وانقلبت أكاليل المجد جلود ماشية من دابة الأرض! فالسيف هو السيف، والقوس هو القوس، والهمة هي الهمة، ولكن فسد الزمان، فتغير الميدان، وصار الزهو بالصيد موضوع تصاوير تملأ الجدران، وتنظم فيها القصائد الحسان!.

– مولاتي! تلك حملة شديدة على أب.

– رويدك! لولا أن الصفحة طويت، ولم يبق في الدنيا مطمع لما انطلق اللسان ولما صدق البيان...

– تلك يا مولاتي عيوب كثيرة، فهل لذلك الزمان حسنة واحدة؟

– له حسنة لا شك فيها، هي الشفيع الوحيد إذا عز الشفيع!

– وما تلك؟

– ذلك الفن الجميل الذي تحرر من كل قيد، وارتقى إلى أفق لم يبلغه من قبل، فقد خلف الترف والبذخ ذلك التفنن في الصناعة، وتلك المهارة في العمارة، وذلك الإبداع في التزويق والتصوير.

حصاد الشهوات

أصبع المزمار

وقالت لي الملكة فجأة:

– والآن تعالي يا بنية لترى هذا الفرعون العزيز الجانب، القوي الساعد في الصيد، الطويل الباع في لذة الكأس والوتر.. وقد بلغ آخر مرحلة في العمر.

ودخلنا حديقة القصر، فإذا زهو مونق في أحواض بين مربع ومثلث، بينهما ممرات منضدة بالحصباء، وعلى جانبيها أشجار النخيل والدوم، والمر، والبلسم، والتين، والرمان، والسنط، والتمر حناء، والطلح (الاكاسيا).. فكان لها نفح عجيب وظل رهيب، وأدهشتني دقة الهندسة في تخطيط البستان وتنسيقه ألوانًا، وأطوالاً، وأغصانًا... فقلت:

– لعمري يا مولاتي، إن لويس الرابع عشر لحقيق أن يغار من هذه الأناقة، وأن يطامن من زهوه بحدائق فرساي التي ملأ الدنيا بها ضجة وفخرًا.

فالتفتت إليَّ الملكة وقد زوت ما بين عينيها وأغمضتها نصف إغماض، وصاحت بي في حدة:

– ومن لويس الرابع عشر إذا ذكر أمنحتب الثالث؟

فسكت.. ولكنها استدركت بعد قليل:

– إن الفارق بينهما في المجد الدنيوي هائل... ففرعون كان سيد العالم غير منازع.. ولكن إذا أقمنا الميزان للخلال وبواعث الأعمال وأهداف الرجال، كان الرجلان فرسى رهان: همهما الأبهة والمتعة المسرفة،فليس في أحدهما قدوة لشهم كريم.. وكلاهما أيضًا أكل الحصرم، وضرس من بعده بنوه، فدفعوا ثمن اقترف من ذنوب.. وي! انظري إلى بعيد.. عن يسار، تحت هذه العريشة، أما ترين هذه القينة ترقص؟

– بلى! إنها شبه عارية...

– إلبسي منظارك هذا، فإنه من نعم زمانكم الجليلة، فإني أعلم أن في نظرك قصرًا عن المدى البعيد.. وأنظري جيدًا، ماذا ترين؟

– أرى أمامها شيخًا جالسًا في إعياء، متهدل الجلد، متكئًا على عصا طويلة، وعليه برود ناعمة هفهافة... ليت شعري! كيف يقدم شيخ أشرف على الموت على مثل هذا المجون؟

فضحكت الملكة وقالت:

– عند أمثالكم الجواب: يموت الزمار ولا تسكن أصبعه عن الحراك!

– وي! أهذا فرعون مولاتي؟

– أجل بنيتي ذاك أبي فرعون.. قد شاخ وهرم لما يبلغ الخمسين من عمره بعد.

– لقد أراد الحياة، وإن لم يعشها طويلة.

– عريضة بالملذات يا بنية، وبالزهو الكاذب، والانخداع بملق رجال

الحاشية «الأمناء»! فقد استمرأ لذة العيش، وما لذة العيش إلا للمجانين! استمرأها فأقبل عليها إقبال المنهوم، لا يحلم بشيء وراء ذلك.. وأقدم على ما لم يقدم عليه من بعده إلا أتباع "أبيقور" من مترفي روما المنحلين، فقد كانوا يأكلون حتى الشبع من أطباق شهية جدًا، ثم يتقيأون ما أكلوا، حتى يتسنى لهم الأكل مرة أخرى!

– وهل كان فرعون يفعل ذلك يا مولاتي؟ هل كان يضع ريش الطير في حلقه حتى يستفرغ ما في بطنه؟

– كلا! فإن التشبيه مع الفارق... إذا نقلناه بحذافيره من المائدة إلى المخدعكان صحيحًا مطابقًا.. فالمعاجين الموصوفة لتقوية الشهوة كانت هم هذا الفرعون، لا يستكثر فيها أغلى الأثمان للسحرة والأطباء، والسحر والطب قريب من قريب في ذلك العهد، لا يثق الناس بطبيب لا يزعم أنه ساحر، ولا بساحر لا يبرئ سحره من داء.. فجنى ذلك الإفراط عليه جناية كبرى إذ شاخ قبل الأوان.

– مولاتي.. يقولون في زماننا إن عمر الجسم خلاياه وغدده، لا بحسب السن، ولكن بحسب القوة والنشاط.. فعمر والدك الحيوي أضعاف من عمره الحسابي.

– صدقتم في هذا التقدير.. ويضاف إلى ذلك أن كثرة المخالطة بنساء كثيرات من رقيقات العفة لا تؤمن عقباها في الصحة.. فكم من داء نجم عن ذلك، فورثه الأولاد مظلومين.

هذا ما جناه أبي

وصمتت الملكة لحظة كالمهمومة، ثم قالت لي:

- أرأيت إلى تمثالي ذاك الذي أعجب به الناس وافتتنوا؟

- أجل.

- إنه تمثال رأسي.. فلماذا لم أجعله تمثالا كاملا؟

فترددت قليلاً، ثم قلت محيرة:

- مولاتي! لعل ذلك أليق بجلال الملك.

- فصاحت بي:

- جواب لبق.. ولكنك وربي حمقاء إذا كنت تعتقدين هذا حقًا!

وحدقت في وجهي كالمغضبة أو كالمتحدية لحظة، ثم كشفت بيديها عن بطنها، فإذا متهدل إلى أسفل، فلم أملك نفسي أن أشيح بوجهي عنه.

فألقت الثوب المنحسر من يديها فانسدل إلى الأرض، وقالت ببطء:

- أرأيت؟ ذلك ما زهدني في تمثال كامل.. وهو الميراث الظالم الذي ورثته عن أبي المتهالك على اللذات والشراب، حتى تضخمت كبده، واعتل طحاله، وانتفخت أمعاؤه.

ورأيت الملكة تحتد، حتى خشيت من بوادر ذلك الغضب، فأردت أن أسري عنها بمجاملة هي الحق، فقلت:

- مولاتي! وهل تأسين على تمثال كامل، وقد ضمن لك ذلك التمثال النصفي إعجاب العالمين؟ وهلا غفرت لأبيك ميراث البطن المستور

بالثياب، نظير هذا الجيد الأتلع الذي لا يضارعه في طوله إلا جيد غزال يتغنى بجماله الشعراء؟

- حماقة أخرى وضلالة جديدة من أوهام الناس الشائعة!

- وي!

- إن هذا الجيد الذي أعجب به الناس ميراث مرضي آخر.. ولكن الإنسان جُبل على مدارة العيب، وعلى أن يجعل من الضرورة فضيلة!

وأطرقت لحظة، ثم قالت وقد وجدتني صامتة لا أحير كلامًا:

- وأزيدك علمًا بذلك الميراث «الجميل»: أترين هذا التاج الذي يزين رأس تمثالي، حتى صار علمًا على نفرتيتي؟

- نعم! وإنه والله لطريف رائع.

- ذلك فضيلة أخرى ندين بها للضرورة الملحة! إن رأس إخناتون ورأسي أنا شبيهان في الاستطالة المرضية المنفرة.. ولكنه رجل وأنا امرأة لا قبل لي بإعلان القبح على الناس.. فجعلت من ذلك القبح سبيلاً إلى الجمال، فكان هذا التاج البادي في التمثال..

وأطرقت مرة أخرى مهمومة.

بقية الحصاد

فلما طال إطراقها قلت لها:

- مولاتي! لقد ذهب الماضي بخيره وشره، ولا خير في الأسى على ما

فات، فما فات مات.

فضحكت وقالت:

– أو ما مات فات، سيان! صدقت، ولكنها ذكريات ممضة حقًا، وبخاصة حين أذكر بكر إخوتي الذي فقدناه يافعًا... فلو عاش ذلك الفتى الأخ تحتمس... ولكنه مات في ريعانه وهو في منف يدبر أمر الثقافة، ويشرف عن كثب على تنظيم الجيش وإقامة العمائر.. مات أكثر الظن ببركة ميراث أبي من أعقاب الملذات، والإسراف في المجون والشراب... فلما أدرك الهرم أبي في استواء العمر، ورأى كهنة آمون يضمرون له الكيد، وذكر كيف اعتلى العرش بيدهم في غير حقه، خشى أن يفعولها من بعده، فأشرك أخي أمنحتب معه في الحكم سنواته العشر الأخيرة.. ثم زوجني منه، ليكون مجلسه على العرش موطدًا ويأمن من غدر كهنة آمون.

مات الملك.. عاش الملك

صفحة طويت

وأمسكت الملكة بمعصمي بين أصبعيها الجميلتين وقالت:

– وأخيرًا يا بنية حم القضاء، وأدركت المنية أمنحتب الثالث، فرعون مصر «الفخيم» ولم يجاوز الخمسين من العمر.. ولكنه كان قد شاخ منذ أن بلغ الأربعين، ولم تغن عنه السطوة والجاه العريض، ولم ينفع في رد ما خار من قواه طب بابل وآشور، بعد أن عجز طب مصر عن إبرائه. مات الأب فخلفه ابنه الشاب الذي سلخ في التدريب على أعمال الملك عشر سنين، منذ كان صبيًّا، فصار الملك الفرد، المصون الذات عن غدر الكهان بحكم توليه العرش فعلا ذلك العقد الكامل من الزمن. وبذلك طويت صفحة ملك دام ثلث قرن من الزمان، لتفتح صفحة جديدة، قدر لأخي وزوجي، ولي أن نكون قلمها ودواتها.. وقدر لهذه الصفحة أن تكون صفحة فذة في تاريخ مصر القديمة كله.

فقلت للملكة:

– ولكن هل تستطيع الصفحة الجديدة أن تتحرر من جرائر الصفحة المطوية، فلا تتأثر بما سطر فيها ثلث ذلك القرن من الحكم الفاسد؟

– هيهات يا بنية.. هيهات! فالتاريخ سلسلة متصلة الحلقات، فإذا لم يصح أن التاريخ يتكرر، فالذي لا شك فيه أنه يتطور، والتطور ظهور بعد

كمون، فما كان شرط لازم لما سيكون.

– حنانيك يا مولاتي! ذلك أولى به شيخ كابن خلدون! وإنما مبلغ ما أتوق إلى علمه عن صفحة فرعون الذي قضى، هو مقدار ما أثرت به في صفحة فرعون الجديد.

– إن الصفحة القديمة مشحونة بسخط جميع الناس، فمن عجائب الأمور أن عصور الانحلال يشيع السخط فيها بين جميع الناس، مع أن جميع الناس مشاركون في الانحلال العام وفي أسباب ما يسخطهم.. فكل واحد من الساخطين يسخط على جانب العلة الذي لا ينجم عن نفسه، أو هو يعلم مقدار مشاركته في الفساد، ولكنه يتعلل بأن الجميع قد فسدوا فلا سبيل أمامه للإصلاح وحده... ونظرة إلى رجل سكير عربيد حين ينتشي، تطلعنا عليه باكيًا في بعض الأحيان حزنًا على سوء حاله وسقوط مروءته.. فهو يعلم أنه فاسق، وأنه ساقط المروءة، ولكنه عاجز عن إصلاح نفسه. كذلك المجتمع الذي يسري فيه الفساد حتي يدمنه، نرى أفراده عارفين مبلغ فسادهم، ولكنهم عاجزون عن النوبة أو زاهدون فيها لغلبة الشهوة عليهم.. وكذلك كان شعب مصر في أخريات حكم أبي، فالمحافظون على القديم ساخطون، وأصحاب آمون ساخطون، وأهل النجدة على قلتهم ساخطون، وأهل الولايات يتربصون الفرص للانتقاض، والجيش متذمر من هذه الميوعة الفاشية، والشعب ساخط لهذا الفقر الذي يجثم على صدره، ودعاة التحرر الناجم عن اتساع الآفاق وحرية الفكر ساخطون لبقاء آمون مخيمًا بظله على عقول الناس... فكيف تكتب صفحة جديدة بعد هذه الصفحة دون عناء، ودون تعثر؟ فمن ذا الذي

يستطيع رفع كل هذا السخط المتناقض البواعث والأهداف؟

– ذلك ما أراني مشوقة إلى معرفته على حقيقته.

– سأريك إياه، وسأريك إخناتون"أمنحتب الرابع"، وسأريك نفسي في جواره رأي العين حين مات أبوه، وصار إليه الأمر كله.

– وكيف تفعلين ذلك؟

– أغمضي عينيك.

وأغمضت عيني، فمسحت جبهتي بيدها، فأحسست أني أغفيت برهة، ثم صحوت فإذا أنا في بهو ضخم، فيه عمد رشيقة منقوشة، وإذا شيء يهمس في أذني:

– هذا قصر فرعون الراحل، عن يمين النيل، في حضن الجبال النحاسية على حدود وادي العدم. إنه قصره الذي بناه للملكة تي، وجعل فيه بركة كبرى أسماها «مورد اللذات».. امضي.

ومشيت قدمًا كالنائمة.. فإذا الصوت يهيب بي:

– يسارًا.. يسارًا.. من هذا الباب الذي يقف به الحارس، لا تترددي،إنه لا يراك، ولا يسمعك. ادخلي.

ودخلت.

تركة فرعون.

قاعة كبيرة في صدرها إيوان فخم ومن حول الإيوان –على مبعدة–

نفر من الناس في ثياب الخاصة، وإن بدوا فيها كالغرباء عنها! وعلى الإيوان رجل حليق الرأس عاريه، يبدو رأسه مستطيلًا استطالة شاذة، ومن تحت جبهته الضيقة عينان وأنف طويل كأنف الحمار، وشفة عالية بارزة، وعنق طويل، وبطن متهدل.. وإلى جانبه تلك الملكة التي كانت مرشدتي في ربوع طيبة منذ قليل. ومن حولهما طفلتان صغيرتان، إحداهما تعبث بذقن أبيها، والأخرى تجذبه من أذنه!

هذا إذن أمنحتب الرابع، الذي سيعرفه العالم بعد باسم إخناتون.. وهذه زوجته وبنتان من بناته، وهؤلاء خاصته الأقربون مطاطئين رؤوسهم لا يجسرون على النظر إليه، على تقليد البلاط الفرعوني.

أما الملك فلم تكن عليه شارات الملك، ولم يكن شامخ الرأس مقطب الجبين في سمت التوقر.. بل كان مطرقًا حزينًا.

ومدت الملكة يدها فداعبت يده وربتت عليها، فرفع إليها عينيه، وتعلقت عيناي بهاتين العينين: إنهما عينان فذتان. أجل إنهما لا يمكن أن توصفا بالجمال الخارق، ولكن شيئًا فيهما يستوقف النظر: فكأنهما ليستا عيني بشر من أهل هذا العالم، فليس في عيون أهل هذا العالم كل هذا القدر من الأحلام البعيدة، والآفاق الرحيبة... إنهما عينا حالم يتسمع أصواتًا تأتي من وراء الأفق، من عالم غريب غير منظور، وغير مسموع، ولكنه يسمعها سماع اليقين، ولا يحس لغيرها وقعا في أذنيه الكبيرتين.

ولكن أحلامه في هذه اللحظة كانت حزينة، أسيفة...

وهمست الملكة في أذن زوجها، الذي أنستني عيناه كل هذا القبح

الذي حشد في سحنته الغريبة، قائلة برفق ودعة:

– فيم الحزن والاكتئاب يا أمنحتب؟ هؤلاء المخلصون من رجالك الذين اصطفيتهم بنفسك من حولك، يهنئونك بالسيادة على العالم.. ألا تهتم لهم؟

وصمت لحظة، ونظره الزائغ لا يزال متعلقًا بذلك العالم غير المنظور ثم قال في صوت بطيء المقاطع:

– السيادة؟ أترينها شيئًا يسر القلب؟

– كيف لا؟

– بل كيف أجل؟! إنها عبء.. إنها جد الحياة المر لا زخرفها الماتع، إلا أن نعيد صفحة طويت يا أختاه.

وربت على كتفها تربيت المحزون المذعن للواقع البغيض...

وفي هذه اللحظة دخل رجل بدين، فألقى بنفسه على الأرض بين قدمي فرعون، وجعل يهلل بالدعاء، فالتفت إليه فرعون.. ثم أذن له في الكلام، فقال الرجل البدين الزخرف الثياب بالقلائد والأساور:

– ليتهلل قلب مولاي فقد دانت له الدنيا وقربت إليه قطوف المسرات.. وتحت يدي عبده في غرفات قصوره الملكية ست عشرة زوجة من بنات الملوك والأقيال، واثنتا عشرة مائة من السراري الحسان، منهن سبع وخمسون أبكارًا لم يمسسهن بشر، جئن في البريد الأخير لمولاي الراحل، وكن تحت التدريب والتهذيب في حجرات القصر.

فداعبت شفتي فرعون ابتسامة، والتفت إلى الملكة فتبادلا نظرة

سريعة ضاحكة، ثم توجه إلى أمين القصر بهذا السؤال:

– كل هذا العدد الضخم؟ إنها حقًّا لمشكلة.

فأسرع الأمين يقول جادًّا:

– عاش مولاي إلى آخر الدهر، ممتعًا بالصحة، والجمال، والقوة.. ليست في الأمر مشكلة، فإذا أذن لعبده ملك يمينه تكلم.

– تكلم.

– هناك أكثر من حل أو نهج لسياسة الحريم، فإذا شاء مولاي اتبعنا نظام الطول، الأطول فالأطول، أو نظام اللون السمراء فالبيضاء، أو نظام القرعة، أيها خرجت قرعتها نالت الشرف العظيم بالاضطجاع تحت قدمي مولانا ليومه أو ليلته.

فلمعت عينا فرعون الشاب، حتى أشرقت أساريره بهذا الابتسام، والتفت إلى الملكة مازحًا:

– نفرتيتي.. ما ترين يا أختاه في هذا الذي يعرضه علينا أمير الحريم؟ أي هذه المناهج التي تنم عن رجاحة عقل وسعة علم ترينه أليق بالاتباع في ملكنا الجديد؟

فبان في وجه الأمين، وفي وجوه سائر الحاضرين الدهش العظيم لتوجه الملك بهذا السؤال إلى الملكة بالذات.. وفاتهم ما في سؤال من تهكم لاذع.

وابتسمت الملكة وقالت:

– إنها لحيرة عظيمة يا مولاي وشقيقي.. وأحسبك وحدك المسئول أن

تجد لك منها مخرجًا.

فهز فرعون كتفيه والتفت إلى الأمين، وقد تلاشى الابتسام من محياه، وبدا عليه الجد الصارم، ثم سأله:

– ليس المخرج هو الذي يحيرني الحيرة الكبرى.. وإنما هو المدخل إلى هذا كله! فما الذي خلق هذه الأشكال، ومن أين لي هذا كله يا أمين القصر؟.. ولماذا يكون لي كل هذا الجيش من النساء؟

فصاح الرجل دون أن يرفع رأسه، وهو يغالب الحدة التي تجيش في صدره:

– مولاي! أطالت الآلهة حياتك يا نور رع حور اختي.. إنها تركة والدك العظيم؛ فقد كان والدك عظيمًا جدًّا يا مولاي؛ كان له كل هذا، وكان يعلم أن له أكثر من هذا، فالعالم كله رهن مشيئته؛ فرعون ابن آمون يا مولاي... والآن قد صارت كل هذه التركة الجميلة، أجمل تركة في الدنيا، إلى مولاي ابن مولاي، سيد العالم.

ونطح الرجل الأرض برأسه علامة الإجلال.

وهز فرعون رأسه مرة أخرى، ثم قام يتمشى في الحجرة طولًا وعرضًا، والكل كأن على رؤوسهم الطير.. وإن خالسوه النظر في عجب من هذا التمشي الذي لم يعهد في حركات الملوك، بل الآلة من فراعين مصر.

وعلى حين غرة، إذ هو عند الإيوان، ألقى بنفسه بجانب الملكة والأميرتين، ثم تصلبت أطرافه، وتصبب عرقًا!

وصاحت الملكة:

– إنه الداء الملكي! عاوده الصرع.

وصاح واحد من الحاضرين تبدو عليه الطيب وبساطة الأصل:

– إنه مس الآلهة حين تتصل بينهم وبينه النجوى.

وأشارت الملكة فانصرف الجميع، عدا هذا المتكلم الذي قالت له الملكة في لطف:

– ابق أنت يا مريرع.. واقترب من مولاك.

فجعل يجلب له الهواء بمروحة في يده، وأخذت الملكة تمسح عن جبينه العرق المتصبب، حتى أفاق من غشيته بعد لحظات.. فجعل يدور بعينيه في أرجاء القاعة، ويتفحص وجه الملكة والأميرتين ومريرع كأنه يراهم لأول مرة، ثم تهلل وجهه في إعياء وقال:

– هذا أنت يا مريرع؟

– لبيك يا مولاي.

– لقد غامت نفسي وثقل عليها هذا الميراث «الجميل» كما يسمونه مخلصين، ولكني مهتم مغموم لهذا الميراث الذي يذكرني مبلغ ما أمامي من أعمال جسام، لست واثقًا من مقدرتي عليها وقد استشرت وأشربتها نفوس الناس.

– مولاي، إن سلطانك لا يعلوه سلطان، فإذا لم تفعلها أنت فمن ذا يفعلها؟ من للحق، والعدل، والخير، والفضيلة، والمحبة، ورفع المظالم يا

مولاي إذا لم تكن أنت وليها، وأمينها، وسر الإله معك؟

– أجل، لقد غامت نفسي ففتحت لي صحائف الأسرار، ولقيت في طواياها ما رد علي القوة، واليقين، والاقتدار.. ادع أمين القصر.

ودخل الأمين، فخر على الأرض أمام مولاه.. فقال فرعون بصوت حازم على هدوئه الشديد:

– أمين القصر.. اسمع ما يأمر به مولاك فرعون مصر.

– المجد لفرعون سيد العالم وروح الإله آمون.

– هذا الحريم لا حاجة لي به.

– مولاي! أموتًا يمتن أم...؟

– اسمع! لا موت لأحد.. إنما أريد الحياة للجميع.

– فرعون هو الحياة، والصحة، والبأس.

– اصغ لي يا أمين القصر.. لترتب لهذا الحريم حياة طيبة، ولتكن له منازل خاصة، ولكنه لا يسكن بعد اليوم في مساكن فرعون.

– فرعون هو الحياة، والصحة، والبأس.. أمر فرعون نافذ.

وانسحب أمين القصر، فهمس الصوت الخفي في أذني:

– اتبعيه لحظة ريثما يختلي برجاله المقربين، فإن ذلك الأمين قد تلقى الآن حكم الإعدام على نفوذه الأعلى؛ لإنه أمين الشهوات، والشهوات كانت مقاد فرعون السابق الذي ليس بعده مقاد،

وتبعته إلى ديوانه غير بعيد.

غضبة «الأمناء»

وفي الديوان رأيت أمين القصر الذي كان منذ لحظة منبطحًا على الأرض ببطنه وشحمه، وقد تطاير الشرر من حدقتيه، ونفرت العروق بين عينيه، وعنده رهط من كبار القوم عليهم شارات الحكم، وأشعرت أن هؤلاء من أمناء البلاط؛ فمنهم أمين الزخارف والكساوي، ومنهم أمين الشراب والمائدة، ومنهم أمين الحلي والجواهر.. وكلهم غاضب ثائر مع أمين الحرم الذي كان يرغي، ويزبد،ويهدر كالفحل وما هو من الفحول!

– أهذا فرعون مصر الآن، أهذه مهابة الفراعنة وعزة الملوك الأمجاد؟ أي هيبة لفرعون، وأي أبهة بلا حريم؟ أملك هو أم درويش من الدراويش؟

وصاح آخر، أشعرت أنه أمير المراسم والحفلات والتشريفات؟

– وماذا كنا ننتظر غير هذا، وما هو شر منه، من رجل رفع السوقة إلى مقام الخاصة، وجعلهم المقربين إليه.. جمعهم من مجالس العامة وصحون المعابد، معابد الشمس، ومن التسكع، والفراغ، والصعلكة، فرقى بهم ما لا يرقى النبلاء العريقون كابرًا عن كابر؟

– هذا مريرع مثلًا.. طالب علم في معبد، من عامة العامة.

– و«ماي».. ذلك الصعلوك الذي كان يتسول ليعيش؟

– إن العرش العتيد، عرش آمون وضحى الشمس، بات مهددًا بالزوال مذ آل إلى هذا الرجل التافه حلف الأوراق، وقراءة الأوراد والمزامير.

– ليشبهن أحد دراويش رعاة الغنم.. أولئك العبرانيين الأنجاس.

– أهي النهاية إذن؟ ماذا يقول الناس؟ وكيف يحترمون رجلًا لا يريد النساء، ولا الطيب، ولا يغرق من حوله من كرمه، ولا يخشى عدوه سيفه؟ وأي نفوذ يبقى لنا؟ وكيف تقوم الدولة بلا نفوذ، وكيف يلمع التاج بلا زهو ولا أبهة، وكيف يكون الصولجان مجردًا من الصولة والسطوة؟

– إنه الليل، ولكل ليل آخر.. فاصبروا وتربصوا.

أصحاب النجوى

وهتف بي ذلك الهاتف المجهول:

– والآن إلى بيت مريرع"صفي فرعون"، الذي رفعه من الحضيض إلى الذروة بما تنسمه فيه من بوادر الخير والاستقامة.

وسرت كأنني في حلم، حتى بلغت بيتًا غير بعيد من القصر، عليه مسحة النعمة الطارئة، زخرفًا وأثاثًا، وفي بهوه جلس مريرع وشاب آخر سمح الوجه، أشعرت أنه «ماي».. وإذا على وجه الاثنين فرحة لا حد لها.

وقال مريرع:

– لقد آن الأوان أخيرًا أن ينتهي كل هذا الفساد الذي ضاق به الناس حتى أوشكوا أن يخرجوا عن طورهم.. فما أسعدنا أن تغدو الدولة إلى يد أمينة متعلقة بالحق.

– وهل جلسنا إلى فرعون يومًا إلا كان حديثه عن «الحق» الذي ضاع في غمار من الأكاذيب، والمخاتلات، والتضليل؟.. ما أسعد فرعون

اليوم يا مريرع.

– جانبت الصواب يا «ماي»؛ فقد لقيته اليوم وقد فرغ من تشييع أبيه إلى مقره الخالد.. فإذا حيرة واهتمام يكاد يغلبه على همته.

– وي! إني قست فرحه على فرحي، فحسبته كاد يخرج من جلده، وما فرحي إلا لجاه لا يبلغ من جاهه ما تبلغه الحبة من الجبل.

– ولكنك نسيت شيئًا.. نسيت يا «ماي» إننا نصير إلى جاه بعد فاقة، وإلى ذكر بعد إهمال، أما هو فليس شيءمن ذلك عليه بجديد، فهو حقيق ألا يزدهي بالسلطان، وإنما هو حقيق بالشعور بوطأة السلطان على كاهله.. وإنه لعمري لكثير. أم تراك نسيت يا «ماي» خروجه معنا متنكرًا نجوس القرى، ونشهد مجالس الكادحين إذا جلسوا للقيلولة في ظل أشجار الجميز، وكيف كان قلبه يتنزى وهو يرى مبلغ شقاء هؤلاء الناس عن كثب؟

– أجل أذكر ولا أنسى.

– فكيف إذن تحسبه يفرح بالسلطان؟

– لأنه الآن قادر على إزالة كل ما لا يرضاه.

– لقد شط بك الوهم!

– وي! وفيم الحزن اليوم؟ إن الحزن فيما مضى كان مفهومًا لأنه غير متفرد بالسلطان؛ ولأنه يريد ولا يستطيع ما يريد، أما اليوم فعلام الحزن، وهو قدير أن يأمر فلا يرد؟

– بل إنه اليوم أليق بالهم والغم.. ففيما مضى كان أمامه الأمل أن

يتغير الحال، وأما اليوم فلا أمل وراء قدرته.. فإذا لم يستطع كانت تلك قاصمة الظهر التي لا يقال لها عثار.. فهو لهذا مشفق من هول التبعة، عالم بمسئوليته الكبرى.

فأطرق «ماي» لحظة، ثم أشرقت أساريره وقال:

– لا أدري.. ولكني على كل حال فرح مستبشر، وبيني وبينك، أراه متعلقًا بما لا ينال، فلماذا لا يتمتع من الدنيا بما قضته له الأيام؟

– ها!.. لقد سرح حريم أبيه.

– ماذا تقول؟ أيسرح أفخر وأمتع حريم في العالم؟

ثم ضرب على فخذ مريع، وضحك ضحكة تمتزج فيها المرارة بالسخرية وقال:

– إننا سيئو الحظ يا صاحبي.. لو أن الذي أحبنا واصطفانا كان فرعون القديم؟ أو لو أن لي أنا هذا الحريم؟

– اسكت يا «ماي».. اسكت.. أتكفر بالنعمة..؟

– أبدًا.. إني أذكرها دوامًا، ولكني أذكر أيضًا ذلك المثل الذي يقول: «إن الأقراط تعطى دائمًا لمن ليست لهم آذان».

وعندئذ هتف الهاتف الخفي في أذني:

– دعي حديث الأقراط والآذان، وهيا إلى القصر مرة أخرى.

النور الجديد

عود على بدء..

وألفيت نفسي على درج القصر العريض المفضي إلى البستان، وأمامي الملكة نفرتيتي.. فحرت في بادئ الأمر أهي الروح المبعوث، أم هي الملكة التي رأيتها بجوار زوجها منذ حين؟ ولكنها حسمت الحيرة بابتسامة مشرقة وجهتها إلي، فعلمت أنها الروح المبعوث لا الجسد الفاني.

ووضعت يدها على كتفي برفق وهي تسألني:

– أرأيتِ؟

– رأيت يا مولاتي.. وإني لمشفقة من ذلك العبء الرازح الذي أثقل كاهلك وكاهل زوجك، فإنها الظلمات المطبقة والهاوية التي لا يعرف لها قرار، والمتاهة التي لا مخرج منها لمن تردى فيها.

– هو ذاك.. ولكن بذرة الأمل في النفوس الكبار لا تدع لليأس إلى سريرة أصحابها سبيلًا، وإن بعدت الشقة، وقامت دون الغاية عراقيل وأهوال.. ولئن قيل في بعض الأمثال: «قد يخرج الطالح من ظهر الصالح». أو قيل في كتاب كريم: إن الميت قد يخرج من الحي.. فإن الصالح قد يخرج كذلك من ظهر الطالح، وقد يخرج الحي من الميت.. وكذلك خرج أمنحتب الرابع من ظهر أمنحتب الثالث، وولد عبد المظهر والأبهة كاهن الحق والعدل والمحبة.

– حكمة الله وسنته في خلقه.

– أجل! ولكن ويح نفسي على إنسانية يسيء إليها المسيء ظالمًا، فيعيش ما عاش منعمًا، ويمضي سالمًا غانمًا، حتى إذا أراد أن يحسن إلها المحسن، خذلوه، وقتلوه، أو عذبوه، ثم لا يسلم عرضه وذكره بعد موته من قالة السوء.. فلا هو انتفع بالعيش، ولا نعم بحسن الأحدوثة بعد الموت.. فهو غارم في الحياتين، والفاجر الفاسق غانم في الآخرة والأولى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– أهو العتب على الأيام، ولا جدوى من العتاب؟

– كلا! ليس العتب على أبناء من غبر من الدهر، وإنما العتب على بعض من خلفوا السلف على تراثهم، فلم يقسطوا.. والله يحب المقسطين.. فقد تلمسوا للرجل الزاهد العف المتجرد لتأييد الحق أوهامًا من الأراجيف الكذاب، ورموه بأقذع السباب، في غير موضع ولا مبرر، إلا استغراب بعض من خلق الله لمن ليس من معدنهم، أو على جبلتهم.

– على رسلك مولاتي! فالجروح قصاص، وقد أعطيت الفرصة بهذا البعث لكي تميطي اللثام عما التبس واستغلق على أفهام فئة من الناس من أمر زوجك العظيم... فأفيضي، ولئن حصحص الحق فإنه واجد من يناضل دونه، والله ينصر من ينصره ولو بعد حين.

العلة الأولى

فأطبقت الملكة شفتيها إطباقة الكظيم، وأطرقت برهة ثم قالت:

– بماذا أجيبك؟ فإني إن أنكرت قولك كفرت بالحق الذي دعا إليه

إخناتون زوجي، وكفرت بالواحد الأحد الذي جعل له الصفات الحسنى وآلاء الخير واليمن جميعًا.

– أتقولين الواحد الأحد؟ أتقولين آلاء الخير، واليمن، والصفات الحسنى؟

– أجل.. كذلك دعا إخناتون إلى الله، وكذلك عبد إخناتون الحق ﷻ، وكذلك علمنا أن الله خلق الكون، وأحب العالم.

– مرحى! مرحى! إني لفي عجب لا ينتهي من عجب.

– إذا عرف السبب بطل العجب.. ونعرف السبب إذا بدأنا بالبداية، وتحرينا مراحلها ومراقيها إلى أقصى النهاية، فليست تعرف الغايات القصوى إلا إذا عرفت على حقيقتها عللها الأولى، لنرى كيف أشرقت الأنوار من أعماق الهاوية.

– ذلك والله لو لم أسمعه من مولاتي، ولو أعلم أن مولاتي أعرق تاريخًا وأقدم سابقة، لقلت أنه كلام حكيم اليونان ومعلمها الأول «أرسطو»!

– ولم لا يكون من كلامي لا من كلام حكيم اليونان ذاك؟

– إنه الفلسفة الأولى، علم العلل الأولى والغايات القصوى، ابتدعتها اليونان ولم نعهدها في المأثور عن الفراعين.

– ألأن السقيا في بلاد المشرق وربوع سوريا تعتمد على المطر، ولا تعتمد عليه في كنانة الله التي يرويها النيل، يقال أن مصر لا تعرف الزراعة، وأن فلسطين وسوريا وحدهما تعرفان البذر والحصاد؟

– كلا وربي!

– كذلك ما تسمينها الحكمة الأولى، علم العلل الأولى والغايات القصوى، لم تعهد في مصر؛ لأن الحاجة إليها مكفية بما يتيحه الدين المصري القديم من تفسير وتعليم، فهو كالنيل لا يرد ظامئًا ولا يحيل على ماء الغمام أمرئ من بنيه. أما اليونان، فليس عندها ذلك المورد الزاخر المسمى بالدين المفسر المستقر المهيمن، فاحتاجت النفوس إلى التماس ريها من مورد آخر، ولعلك لا تجهلين أن عين شمس ومدينة الشمس، التي تسكنينها في هذا الزمان، عرفت حصباؤها وقع خطى أفلاطون أستاذ أرسطو، وخير من تفلسف على الإطلاق في الأولين والآخرين... كما عرفت أرض الكنانة من قبله «طاليس» دارجا فوقها يتلقى فتات العلم على كهان الشمس.

موطن الداء

فقلت للملكة:

– آمنت يا مولاتي بالله، وبأن الحكمة نبتت في وادي النيل.. وأن فرحي بهذا اليقين –علم الله– لفرح عظيم.

فابتسمت الملكة متلطفة وقالت:

– وكيف لا؟ و«صوفي» بلغة اليونان هي «الحكمة»؟ فلست يا ابنة الصعيد بالبذرة المجلوبة إلى ديار آمون من بلاد الزيت والزيتون!

– حياك الله يا مولاتي.. فهلا نبأتني عن العلة الأولى عند إخناتون؟

– نعم.. ولا ينبئك مثل خبير، فقد فطن إخناتون إلى تشعب الداء وتباين أعراضه، ولكنه فطن أيضًا إلى أن موطن ذلك الداء لابد واحد.. وأن علاج الأعراض المتفرقة حمق، وجهل، وتخبط لا يفضي إلى طائل.

– والله يا مولاتي، وما بي حاجة إلى الأيمان المغلظة، إن هذا كلام لو كتب بالجواهر لكان دون حقه، ولو عرفه أهل هذا الزمان لوفرت الإنسانية على نفسها محاولات طائشة ما أكثرها.. وكأني بذلك الوصف لمناهج علاج الجماعات قد خرج لتوه على الناس، وليس أثرًا باقيًا من ألوف السنين.

– ويحك يا بنية! هل نسيت سريعًا قول شاعرك الضرير البصير:

وذهبوا والبلاء باق ولم يزل داؤها العياء

حكم جريء للمليك فيناونحن في الأصل أغبياء!

– عفوك! ولكن حب الإنسان لنفسه ينسيه، أو يلهيه عما يعلم من مخازيه.

– لقد بحث إخناتون عن موطن الداء، وعلة العلل في انحلال الناس خلقًا، فانحلال الخلق هو أصل كل انحلال، وتصدع في مقومات الجماعة حتى المادية والاقتصادية منها. فالناس يفتري قويهم على ضعيفهم إذا فسدوا، وينصف قويهم إذا صلحوا.. ولن يعدلوا بغير ذلك من التنظيمات، والحدود، والقيود إلا أن يزول التفاوت في القوى كافة.. وتفاوت القوة هو سر الوجود، وزواله لغرض الإصلاح مثله كمثل وقف سريان الدم في جسم إنسان توسلًا إلى كف الداء عن الجريان فيه!

– كلام لا ريب عندي فيه، وإن أقام على الريب آخرون.

– لا علينا، فلن نهدي من أحببنا، والله يهدي من يشاء!.. لقد بحث إخناتون عن العلل في فساد النفوس، فوجدها في ضياع الثقة بقيم عليا للحياة تتعدى اللذة العاجلة المحصورة في أضيق نطاق يمس الفرد من الناس، فكأنما الحياة خلسة مختلس، أيهم بدد منها ما استطاع، ونهب، وأضاع فهو الرابح المجلى.. فلا يبقى أحد من الناس على شيء، ولا يتورع عن شيء؛ لأنه لا يرى شيئًا وراء الغنم العاجل ومتاع الساعة الموقوت.

الصرح المنهار

فقلت في دهشة:

– والدين مولاتي، دين مصر القديم؟ أما قلت لي منذ برهة أنه كالنيل لا يرد ظامئًا، ولا يحيل أحدًا من بنيه وتابعيه على نبع للحكمة سواه؟

– بلى! وإنه كذلك.

– إذن ماذا دهى الناس؟ أو ماذا دهى الدين؟

– وها هما معًا ما دهى فلسفة اليونان بعد نهضتها الأولى، فذهب الناس مذاهب السفسطة، والانحلال، والتهالك على اللذات... فذلك طور طبيعي يتلو طور النهوض في الأمم، ولا سيما في أعقاب الحروب المدمرة، وفي عصور الرخاء والترف.. فالإمبراطورية المصرية الواسعة أتاحت للناس أن يكشفوا أن ثمة آلهة غير آلهتهم، فتزعزع يقينهم في سلطانها الشامل.. وكثر المال، فسيطرت اللذة عليهم، وانصرف كهان آمون

أنفسهم إلى الاستكثار من الأموال والنفائس.. فانهار سرح إيمان الناس بدينهم القديم، وعبدوا الصنم الجديد، صنم العصر، المصوغ من الذهب الرنان! وإذ ضاع الإيمان بالدين، ضاعت قيم الحياة العليا التي تتعدى الوجود الفردي المحدود إلى خدمة النوع، أو خدمة القومية.

– ألا عاصم لهم غير الدين؟

– إنهم لم يعرفوا من قبل شيئًا ينظم فضائل الحياة ومسائلها العليا غير الدين، لهذا انهار بانهياره صرح الفضائل الاجتماعية، والخلقية جميعًا إلى فئة قليلة لم تبلغها الأمة الجديدة، هي أدنى الطبقة الوسطى... فالعلة كلها ناجمة عن خمود جذوة الروحانية، وطغيان المادية حتى غشت على بصائر الناس.

النور الجديد

«فكان حقًّا إذن على من يلتمس نورًا للناس وسط هذا الظلام الدامس، أن يلتمسه من ذلك النبع الخالد، نبع الروح، فيدفع بها شيطان المادية حتى يصرعه، وليكونن ذلك النور باثقًا من المصدر الأصيل، لا تشوبه شائبة مما أودى بأنوار الدين القديم».

– مزيدًا من النور يا مولاتي في أمر هذا النور!

– ذلك لك: إن الأديان القديمة كانت زلفى إلى مصدر الحياة عند العامة، وكانت عند الخاصة تجسيمًا لقوى ذلك المصدر المتعددة، قياسًا على قوى البشر التي يعهدونها في أنفسهم، فقد تصوروا الفطرة الفاطرة على صورهم.

– تصور معهود في جميع الشعوب، وأخشى أن أقول في جميع العهود.. فالناس فيما يتصورون عبيد ما ألفوا.

– بذلك قامت أساطير الآلهة المتعددة، وتناسى الناس رموزها مع تقادم العهد، فلما اتسعت الآفاق لم تعد تقنعهم تلك الصور، كما يكبر الفتى فلا تقنعه الرشفة بعد الرشفة من ثدي أمه على بر ذلك الثدي به، ويطلب ما يمضغه بقواطعه وأسنانه الحداد.. ثم فتنتهم الدنيا فلم يجدوا عاصمًا لهم منها بسند باق من دين متين.. ففطن إخناتون إلى وجوب قيام ذلك الدين المتين، باثقًا من مصدر الحياة الأصيل غير مموه بالتجسيم والتشبيه، بحيث يكون موضوع ذلك الدين بمأمن من الحدود، والعجز، والنقص. فلابد أن يتوفر له الشمول الذي يمتنع معه الشرك؛ لأن الشرك حد ونقص، والنقص لا يتفق معطبيعة الكمال. وكذلك أقام إخناتون صرح العقيدة على التوحيد الذي لا يعرف الشرك، ولا يأتيه الشك، وعلى التنزيه الذي لا يعتريه تشبيه ولا تمويه.

والشمس وضحاها.

فقلت في عجب يكاد يشبه الإنكار:

– مولاتي، والشمس وضحاها؟ أذلك أيضًا من التنزيه الذي لا يعتريه تشبيه؟ أليس «أتون» هو إله الشمس القديم؟ أليس هو ذلك القرص الذي ترسم له أشعة تنتهي بإياد يتعبد أمامها إخناتون وتتعبدين؟

– ليس أتون هو قرص الشمس يا بنية، على سنة أهل «أيون»، أو عين شمس، أو هليوبوليس–في لغة اليونان– كلا، وإنما هو «الحرارة التي

وراء قرص الشمس»، ولو كانت لإخناتون لغة عصركم لقال: «إنه القوة، أو الطاقة التي تبعث النور في قرص الشمس»، فقرص الشمس ليس هو الله، ولكنه نافذة الله يطل منها على العالم، وليس وقوف إخناتون أمام قرص الشمس عبادة وزلفى، وإنما هو تحية.

– تحية مريبة!

– ولماذا؟ أتعرفين سنة النصارى في التعبد؟

– أخالني أعرفها.

– أيريبك منهم أنهم يقفون أمام صليب من خشب يتخذونه قبلة لهم ورمزًا لدينهم؟ أيخالجك لهذا شك في تنزيههم الله عن التشبيه؟

– وهل ذلك كذلك؟

– أجل.. وهل تعرفين حيرة الناس أيان يولوا وجوهم للعبادة؟ لقد قيل لهم أن ولوا وجوهكم قبلة هي البيت الحرام الذي رفع قواعده إسماعيل بن إبراهيم.. فهل في ذلك ما يريب أو يحمل على الشك في تنزيه الله عن الحلول في مكان دون مكان؟

– كلا.

– إذن لا يريبنك من إخناتون أن يستقبل الشمس؛ لأنها أظهر نعم الله التي يتجلى بها على الخلق.. وأنه ليسمى آتون لهذا «رب قرص الشمس» أو «مولى قرص الشمس»، إشعارًا بأنه شيء وراء ذلك الظاهر المنير.

الخالق والخلق

فقلت وكأن بي شيئًا من ذلك الذي قالت:

– إنها فيما أحسب أول دعوة لوحدانية الله بين الناس، وأول تنزيه له عن الشريك والشبيه.. من غير طريق الكتب المنزلة والوحي القدسي.

– والبصائر يا بنية أليست من الله؟ والعقول يا بنية أليست من الله؟ أفي الله شك حتى يكون عرفانه عجبًا يؤخذ له الناس؟ إن الجهل به على بيان جلاله هو الأحرى أن يقابل بالعجب والإنكار!

– صدقت مولاتي.. فهذا أرسطو يقول بالمحرك الأول الذي يتحرك كل شيء في الكون حبًّا له وعشقًا لكماله.. وهو عقل خالص ليس كمثله شيء.

– ويك! أين هذا من آتون؟ إنه إله أرسطو صاحبك لا يشتغل بأمر الكون، ولا يعنيه منه شيء، ولا يفعل ولا يريد، ولا يحب ولا يهب، فهو أقرب إلى الانفعال بالكون منه إلى الفعل فيه.. فهو معشوق من العال، وليس له بعد ذلك بالعالم صلة.. وإله اليهود جبار ذو انتقام، رب شعب.. العالم متوجس من غضبه أن يثور فلا يبقي ولا يذر، أما إله إخناتون فهو برغم سبقه في التاريخ على كل ذلك ردحًا طويلًا، إله محب للعالم، منعم، رحيم، حليم، بر بالخلق جميعًا –من إنسان، وبهيمة، ونابتة– بر الأب المحب ببنيه الصغار، حتى المعوج منهم والعاق.. فهو أول دين قبل المسيحية بالف سنة ونصف الف نادى على رؤوس الأشهاد أن «الله محبة»، وأنه «هكذا أحب الله العالم...» وأنه كذلك ولا مراء سما بالتصوف

وسبحات الروح إلى أفق لم يبلغه قبله أحد، ولم يلحقه فيه لاحق إلا قول ناسك من متصوفي الهند بعد ذلك بقرون طويلة، هو حكيمهم سنقرة في منتصف المدة بين إخناتون والمسيح، أي في القرن الثامن قبل الميلاد.

وسكتت الملكة فترة قصيرة، فقلت أستحثها:

– ما أسكتك يا مولاتي؟

– خاطر عجيب خطر لي.. ألا يكون قول الهنود بالتناسخ صحيحًا؟

– وماذا أذكرك به؟

– هذا التجريد العجيب بغير تلقين سابق، وكأنه تلقى أسراره على يد إخناتون الذي سبقه بثمانية قرون... فهو يناجي ربه، وكأنه يصيح من أعماق روحه المتجردة: «أستغفرك اللهم عن ثلاث: جعلت لك في تأملك الثور وأنت بلا صورة، وألصقت بك في مدحك الصفات وأنت لا توصف، وقصدت إليك في الهياكل والمحاريب وأنت حاضر أبدًا في كل مكان»

– الله الله! ما ألطف الحس وأصدق النجوى!

نجوى آتون

فقالت الملكة:

– أجل.. ما ألطف الحس وأصدق النجوى! وكذلك كانت نجوى إخناتون لآتون، الإله المجرد المنزه الذي تتبدى للناس قدرته ونعمه من وراء قرص الشمس، قبلة النجوى ومحراب الترتيل، لأنها المظهر الأكبر لذلك

المخبر الذي لا تدركه الأبصار، وهو نبع الحياة الخالد.

– ألا أسمع منه شيئًا؟

– بلى وكرامة:

«أنت المشرق بالبهاء في آفاق السماء

«شمسًا حية منذ أول الأزل

«يتجلى نورك في مشرق العالم

«فيفيض على الأرض بهاؤك

« أيها البهي القوي العلي

«هذي أنوارك تغمر خليقتك جميعًا

«في أقطار الأرض قاصيها ودانيها

«تجمعها كلها مكبلة بقيود محبتك

«لا تفرط في أحد منها

***

«تعاليت أيها المكنون إلا عن آلائه

«يا من تستوي في المغرب فكأن الموت لف الكون

«فالناس نيام لو سلبوا لما أحسوا

«والضاريات تخرج من أوجارها

«وتدب الأفاعي دبيبها المرهوب

«بيدك أمر الكون، وهلاكه عليك هين

«لأنه أنت باريه..

«فأنت الحياة، ولا حياة إلا بك

***

«بك ينمو، ويدب ما في الأرض من سائمة ونبت

«وتحت نورك النافذ يمرح السمك في جوف اليم

«يا مبدع الأجنة في الأرحام

«يا جاعل الخصب في أصلاب الرجال

«يا مطعم الجنين في أحشاء أمه

«ونافخ نسمة الحياة في أوصاله

«فإذا خرج إلى الدنيا أنطقت لسانه

«ودبرت له حاجة معاشه

***

«يا مبدع الفرخ في البيضة

«ومانحه القدرة على الاكتمال فيها

«حتى إذا اكتمل أعنته على كسرها

«فيخرج منها مزقزقًا يمرح هنا وهناك

«فرحًا بالنور الذي وهبته إياه

«ما أعظم نعمك وآلاءك

«وإن ما خفي علينا منها لأعظم

«أيها الواحد الأحد، الذي تنزه عن الشريك

«لقد خلقت الأرض كما شئت

«وليس موجود سواك

«فكل دابة على قوائمها،

«وكل سابح في اليم،

«وكل محلق بجناح،

«كلهم خليقتك سبحانك!

«برأت البلاد كافة

«وأرسيت كلًّا منها في قراره المكين

«وقدرت الرزق للخلق أجمعين

«ثم جعلتهم شعوبًا وقبائل أشتاتًا

«وأنت وحدك واحد أحد»

مدينة اللّه

وسكتت الملكة، وسكت أنه كذلك لحظة، فقد كنت مأخوذة بسحر ما سمعت، ثم فتح الله عليَّ فقلت:

– سبحانه سبحانه، وتعالى علوًّا كبيرًا... حقًّا إن من الشعر لحكمة.

– وشاعر هو يا بنية لا يشق له غبار، وإن عنى قوم بالشعر مثلبة لا تليق بذوي الأقدار والأخطار.

– معاذ الله يا مولاتي.. إنما هو شاعر بالمعنى الرفيع، لا شائبة في خلقه من نزق، والشعراء صيادح الحياة، في بيانهم يتبدى من جلالها ما يتبدى في الأقحوان والنسرين، وما أدري والله يا مولاتي، بعد ذلك البيان المشرق والسحر المتدفق، أي أمجاد فرعون كانت آثر لديه: أمجاد الشاعر أم أمجاد العاهل القادر والمهيمن الآمر؟

– الشاعر يا بنية الشاعر.. فقد خلت من قبل إخناتون الملوك، ولكن ليس في الفراعين من له نفس إخناتون المرهفة وسريرته الصادقة.

– ما أحسبه إلا قد فتن الناس بهذا السحر الحلال.

– واهًا له! لقد استشرى الفساد في طيبة، واضطر الملك النبي أن ينجو بدينه مهاجرًا كما هاجر سائر أصحاب الرسالات العلوية.

– وي! إنه الملك!

– وإن، فالعقائد الموروثة وأنظمة الجماعات المرتبة على تلك العقائد أقوى سلطانًا لدى الناس من أمر السلطان.. فناهيك إذن وقد طامن السلطان من شأن نفسه ونزل عن محله الرفيع.

– ماذا؟

– لقد عهد الناس فرعون ابن آمون، ودرجوا على أن يروه ظل الإله، وأن يلقاهم فرعون لقاء الآلهة للعبيد.. فإذا ذلك الإله ينكر الألوهة على

نفسه، وينزل عنها إلى مستوى البشر، غير مستبق من الألوهة إلا صفة الرسالة، وأمانة البلاغ المبين... فلم يجد إخناتون بدًّا من الهجرة من طيبة ليجعل لربه العلي مثابًا طاهرًا لا يشركه فيه رجس من الأصنام.. فارتقى النيل، حتى وجد تلك المثابة في جنة من جنان الله لم تسكن من قبل، عند «تل العمارنة»، فأقام هناك مدينة أفق الشمس في حضن جبلها الأشم.. واحتفل بتدشينها، وبارك من حولها، وجعلها حرمًا لا تطؤه قدم مشرك بآتون، وأقام فيها قصره إلى جوار الهيكل، وبنى للناس على وجه السرعة بيوتهم في نسق رائع معنيًّا بجمال كل شيء فيها.

– وهل يحرص الشاعر على شيء حرصه على الجمال؟!

– بل قولي: هل يفترق حس الجمال عن حس التدين في الإنسان؟ إن الذوق هو منبع كل حس بالجمال الظاهر والجمال الأسمى على السواء، ولا تصدقي أن متذوقًا أصيلًا للجمال يمكن أن يكون من أصحاب التشاؤم، ودعاة اليأس والحزن والعزوف عن المسرات... فهذا إخناتون على ضعف تكوينه، وشحوب لونه، ووراثته المنكودة عن أبيه، وإلحاح الصرع عليه ذلك الإلحاح الذي يعرفه أكثر العباقرة ذوي السبحات المذكورة في عالم الروح والفن... نراه مع هذا لا يبشر بشيء كما يبشر بالسرور، والمرح، والغبطة؛ لأن لُباب الحياة هو السرور... وإن تسبيحه لربه لا يحفل بشيء كما يحفل بالحركة المعبرة عند جميع الكائنات عن «فرح الحياة».

– ومن ذا الذي هاجر معه إلى «مدينة الله» الجديدة؟

– بقي المحافظون على ما وجدوا عليه آباءهم؛ لأنهم ناعمون في ظل النظام القديم.. وتبعه في مهجره من آمن به، وأكثرهم ممن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، فجعلهم إخناتون شيئًا مذكورًا.. وأول هؤلاء صفيه «مريرع» الذي جعله كاهن آتون الأعظم.. حتى إذا استقر الأمر في العاصمة الناشئة، ضرب إخناتون ضربته، فأبطل كل عبادة سوى عبادة آتون، محطمًا أصنامها، مشردًا كهانها، مسفهًا أحلامهم، وتعقبهم بعذاب أليم، حتى أوشك ألا يبقى من عبادة الأصنام على أثر.

لعنة الذهب

لو أنصف الدهر

فقلت للملكة:

– أعظم بها من وثبة نحو نقاء العقيدة، وكمال الناموس، وقيام الجماعة على التعاطف والتجاوب بين الكون والإنسان...

فقالت الملكة:

– وليس للعقيدة"أي عقيدة" من معنى سوى تفسير الصلة بين الكون وضمير الإنسان، وإنما تتفاوت العقائد رقيًّا وسموًّا بتفاوت نجاحها في تقرير تلك الصلة.

– والعقيدة الصحالة ولا شك هي تلك التي تقيم صلة الكون بالإنسان على الخير لا على الرهبة والفزع، وعلى العناية الحكيمة لا على هوى آلهة، أو قوى طبيعية لا ضابط لها.. فلا ريب أن عقيدة إخناتون التي دعا الناس إليها عقيدة أكمل مما سبقها من العقائد بما لا يقاس، فقد نقل الناس من الشرك إلى الوحدانية، ومن خصوصية الآلهة؛ أي اختصاصها بملكة معينة من الملكات والقوى، وبشعب معين هو شعب مصر، فجعل الله رب الكون أجمع، وصاحب القوى والنعم ظاهرها وخافيها، ونزهه عن الهوى، والقسوة، والاستبداد، فالخليقة تحت سلطانه تسعى إلى السرور، ولا تعيش في رهبة وفزع مقيم من بطشه ومقته.

– أنصفت يا بنية.. ولو أنصف الدهر كما أنصفت لأدرك الناس هذا الذي أدركت، ولرأوا في الدين الجديد نورًا ينبغي أن يصونوه ممن يريدون أن يطفئوه بأفواههم غيظًا من الحق والخير، وحنقًا.. ولكانت مصر قد انتقلت من الضلالة إلى الرشد، ومن الغي إلى البر، ومن الفساد وأكل القوي الضعيف إلى خطة عادلة وحكومة تعدل بين الناس.

ولكن الدهر لم ينصف ذلك الدين، وتألبت على إخفاق دعوته عوامل شتى، ترجع إلى اثنتين: غفلة العامة، وأهواء من يستغلونهم ويسخرونهم على اختلاف ضروب الاستغلال والتسخير.

لعنة الذهب

فقلت للملكة:

– إن الغفلة لا تقاس إلا بمقياس مؤثرات المستغفلين، من المستغلين والحانقين، فما دعوى هؤلاء؟

– أول هؤلاء يا بنية هم عبيد الذهب، أو سادة الذهب وأصحاب المال، فالاسمان مترادفان.

– مترادفان؟ وكيف يتساوى العبيد والسادة، والمالك والمملوك؟

– بل يستويان، وإن بدا ذلك غريبًا لأول وهلة.

– وكيف كان ذلك؟

– كلاهما يا بنية يعيش للغنى والثراء، ولا يحفل بشيء غير تكديس المال، أو تنميته ما استطاع.. فكلما اجتمع إليه قدر من المال كبير،

حسب نفسه قد ملك ما اشتهى، وهو في الواقع مملوك لما يملك، مسخر في رعايته وصيانته، ولو كلفه ذلك خنق ضميره، وصم أذنيه، وطمس عينيه. فهو في عرف الناس وعرف نفسه سيد الذهب وصاحب المال، وإنما هو في واقع الأمر عبد الذهب وخادمه المسخر.

– آمنت بالله.

– ومن عجب أنك لم تعرفي هذا وقد سبقت فيه الأقوال، في عصركم وفيما سبق عصركم، وشاعت في أمر الذهب وسلطانه الأساطير التي لا تعدو الحقيقة في كثير.

– وما ذاك يا مولاتي؟ فإن عندك علم الأولين والآخرين، ونحن نحسبك مجرد تمثال في متحف برلين.

فقالت الملكة باسمة:

– أول تلك الأساطير، أسطورة مما حفظ عن أصحابك الإغريق، أيام مجدهم العريق؛ فقد زعموا أنه كان في بعض البلدان ملك قريب من قلوب الآلهة، فسألوه أن يتمنى عليهم أمنية تجاب بلا قيد ولا شرط.. وكان الذهب –ولا يزال– فتنة الناس وشهوة النفوس، لا يشبع منه متخم ولا محروم، فتمنى ذلك الملك، وأظن أنه كان يسمى «ميدا» أن يعطى نعمة الذهب، فلا يلمس شيئًا أيًّا كان إلا استحال لتوه ذهبًا... فكان له ما أراد، ففرح فرحًا لا نظير له بهذه المنة العظمى التي حسبها أعظم ما أتيح للبشر الفانين من نعم الآلهة، وأيقن أنه سيكون سعيدًا بها سعادة لا تشبهها سعادة في المشرق والمغرب، في الماضي وفيما يجيء من الأيام.. وفتح الملك

«ميدا» عينيه ذلك الصباح، فشك في حقيقة الرؤيا، ونفض عن نفسه الغطاء، فإذا الغطاء يستحيل بين يديه ذهبًا خالصًا! فكاد يصيح دهشة وفرحًا لولا بقية من وقار الملك، أو لولا المفاجأة، فتقلب في فراشه وهم بلبس خفه في قدميه، فإذا الخف يستحيل في قدميه إلى ذهب.. فأيقن أن رؤياه لم تكن أضغاث أحلام، فجعل يهتف بامرأته الحبيبة، فجاءت الملكة من حجرتها على عجل، فأخذها بين ذراعيه وهو في نشوة الفرح والحماسة ليقبلها... فإذا الملكة الحسناء تستحيل بين ذراعيه إلى تمثال من الذهب.

– رباه!

– فذعر «ميدا»، وكاد يجن؛ لأنه أدرك في هذه الساعة مبلغ النقمة التي تكمن في هذه النعمة التي تمناها، وجعل يستصرخ الآلهة أن تسترد نعمتها وترد إليه زوجته، وتأخذ ما لديه من المال والثراء فلا يبقى له من ذلك شيء. ولكن صياحه ذهب أدراج الرياح... ولم يفده إلا تجمع أهل القصر وخدمه حوله وهو يصيح كمن به مس.. وإن به علم الله لمسًّا من جنون ذلك الذهب، وحاول أولاده أن يقربوه ليهدئوا من روعه، فجعل يصيح في وجوههم أن ابتعدوا.

– موقف هائل!

– إلى أقصى حد! فتصوري فزع الأمراء أبنائه إذ رأوا أمهم دمية جامدة بعد أن كانت فتنة حية، وفزع رجال الحاشية وهم يرون مالا يفقهون، ويسمعون الملك يهذي بما لا يعقلون.. ولكنهم حسموا الشك باليقين حين تطوع ذو نجدة منهم فقدم للملك الهائج كأسًا من الماء،

وتناول الملك الكأس فلم تتحول إلى ذهب، لأنها كانت من الذهب أصلًا، ولكن ما رفعها إلى شفتيه ليعب منها حتى يطفئ النار المشبوبة في جوفه، حتى جمد الماء واستحال إلى نضار.. فخر مغشيًّا عليه، لأنه أيقن من هلاكه، وأنه لا نجاة له من عقبى شهوته التي تمناها ملحًّا، وتلقاها فرحًا... فلا سبيل له إلى طعام أو شراب، وقد تمنى جرعة ماء وكسرة خبز قفار بما في حوزته من نضار.. ولكن هيهات! وتمنى ضمة من ولده وبنته يودعهما قبل موته، ولكنه كان ينظر إليهما حسيرًا ملومًا، يبكيان ويبكي، وهو يقاوم مقاومة يائسة حتى لا يلثمهما في ساعته الأخيرة... فمات معذبًا أشنع ميتة ماتها إنسان قط، وبالداء الذي حسبه ترياق سعادة لا تنال.

عنصر الحجيم

فقلت للملكة مأخوذة بما سمعت:

– لا فض فوك يا مولاتي! ما أبدع الرواية، وما أعذب الحديث وأعظم الراوية!

– وهل سمعت الرواية الصادقة التمثيل، راوية «اندرسن» أديب الدنمركة في العصر الحديث، فقد ساق الحديث إلى الأطفال في أساطير هي أولى بالكبار من الناس في هذا الزمن الذي طمست فيه الضمائر والنفوس؟

– كلي آذان يا مولاتي.

– زعموا أن الشياطين أرادت أن تكيد للناس كيدها الأعظم، فقررت أن تنقل إلى الأرض عنصرًا مدمرًا تختلسه من عناصر جهنم.. واختلست

ذلك العنصر المشئوم، وهبطت به من آفاق السماء إلى الأرض، ولكن شهابًا ثاقبًا كان لها بالمرصاد، فهاجمها قبل أن تنزل دنيا العباد، فأحرقها، ووقع العنصر الجهنمي من بين يديها، فلاقاه الشهاب، فتبدد ذرات دقيقة ملأت جو الأرض، ونزل بعض منه في ودياها وقفارها، أما ما وقع في الوديان، والقفار، والجبال فصار جرثومة مناجم الذهب التي نعرفها، وأما ما طار في الهواء، فدخل بعضه في آذان الناس، ودخل بعضه في عيونهم، ونفذ بعضه إلى ألسنتهم، وتسرب بعضه مع ريقهم إلى أجوافهم وقلوبهم.

– لا حول ولا قوة إلا بالله!

– أجل، فمن دخل في أذنه شيء منه لم يعد يصيخ السمع إلا لحديث المال والثراء، ويصم أذنيه عما عدا ذلك من النداء، ومن دخل في عينيه شيء منه لم يعد يرى في الدنيا إلا صفرة الذهب اللماع، ولا يرى عدا ذلك شيئًا مما تحفل به الحياة من الجمال الرائع والفن الرفيع، ومن دخل في فمه شيء من ذلك العنصر لم يعد يتحدث إلا عن المال، ولا يتذوق شيئًا من طعوم الحياة إلا لذة الثراء.. وأما من نفذ العنصر المشئوم إلى قلبه والعياذ بالله من البلاء، فذلك من ختم الله على قلبه، فلا يشعر بشعور بني آدم من عطف، أو حب، أو رحمة، أو فتنة حس، أو سحر بيان، أو جمال صدقة، أو صلة رحم ورابطة دم؛ لأن قلبه قد تحجر، وصار هيكلًا من الذهب، لا يسكنه إلا صنم الذهب.

فقلت للملكة:

– صدق الشاعر وربي...

– أجل صدق وما بغى، فكذلك كان حزب البغي من عبيد الذهب على أيام إخناتون.. نفذ إلى قلوبهم عنصر جهنم، فلم يكن لهم شاغل إلا مقاومة دعوة الحق التي تقوض سلطانهم، وتنكس صنمهم الملعون.

– وهل كان إخناتون عازمًا على مصادرة أموالهم؟

– كلا ونعم! فهو لا يتعرض لما لديهم فعلًا من المال، ولكنه يبشر بإله محب عطوف يرعى الناس كافة، ويريد الخير للناس كافة.. فلا بد من توزيع الخيرات الإلهية بين الناس بالعدل، كما تشرق الشمس على الكوخ والقصر بقدر متساو.. ففي نيته لو امتد له الأجل أن يرفع الحدود التي تفصل بين الحقول؛ لأن الأرض أرض الله، يأكل منها أبناؤه –أي خليقته المحبوبة– بما يرزقهم بعد أن يفلحوها بعرقهم. فكيف يرضا المتخمون من عبيد الذهب عن هذا الرأي؟ وكيف يسلمون بأن الناس سواسية في الحظوة عند الله لا يفرق بين أحد منهم؟ وكيف يؤمنون بدين يحطم صنمهم ويقيم عقيدة الروح على أطلال المادية الجامدة والأنانية الشوهاء؟ كلا لن يسلموا إليه كارهين، ولن يقعدهم شيء عن مقاومة النور الجديد وصده بما أوتوا من قوة وحول.

أصحاب الرياستين

فقلت:

– أمر هؤلاء واضح بيّن.. ومن الطبيعي أن يقفوا هذا الموقف، فما خطب سائر طوائف الناس؟

– يأتي بعد هؤلاء القلة النافذة السلطان من عبيد المال، أو ملوك

المال، قلة أخرى أشد خطرًا وأعظم قدرًا: هم أصحاب الرياستين، وعبيد الصنمين.

– ومن هؤلاء؟

– كهان آمون: من لهم سلطان الدين ونفوذه الساحق، ولهم إلى هذا سلطان المال وجاه السياسة.. عظم نفوذ معبودهم، إله طيبة، منذ قدم أمراء هذا البلد بزعامة حرب التحرير، فطردوا الهكسوس من مصر، ثم طاردوهم في شرق الأرض حتى دانت لهم تلك الإمبراطورية الواسعة، من أطراف الفرات لربهم الزعامة بين الأرباب، وكثرت أوقافه على مر الأجيال، حتى صار له خير ما في الوادي من الضياع ذات الثمار، وصارت له المتاجر الكثيرة، فاجتمع لكهانه سلطان الدين وتهاويل دعاواه عند العامة، وسلطان المال المتجمع في قبضة واحدة منظمة، فأحسنوا الدعاية، وصرف الإعانات للأتباع، والمبشرين، والمروجين، واستطاعوا أن يسخروا نفوذ الدين والمال في السيطرة على السياسة أيضًا، فملأوا الدواوين بصنائعهم، وملأوا القصر بعيونهم، وصاروا يضارعون فرعون في كل شيء، لولا أن لفرعون الجند الكثير، ولشخصيته الدينية بوصفه سليل الآلهة قدسية تحصنه من العدوان، أو تجعل ذلك العدوان غير مأمون العاقبة على الأقل.. فأولئك الكهان عصبة منظمة محكمة، لها أسرارها وهيبتها، فهم دول في الدولة.

– وكيف صبر الفراعين الأقوياء على هذه المطاولة؟

– لم يصبروا عليها، ولكنهم كانوا على ضيقهم بها لا يجدون لهم مخرجًا

ولا مخلصًا من هذا الأخطبوط المتشعب السلطان.. حتى إذا جاء إخناتون وأعلن دينه الجديد، وجدوا حديدًا يفل ما لديهم من الحديد، بضاعته من بضاعتهم ولكنها أنقى عنصرًا وأشرف مصدرًا. ورأوا سيفًا قاطعًا يهدد دينهم ويهدد مالهم، ويوشك أن يقضى على صنميهم: صنم الدين وصنم الذهب.. فهل كانوا مذعنين مستسلمين؟

– هذا غير معقول.

– كذلك هبوا، وقد وضعوا يدهم في يد رجال المال وأهل الغنى – وهم أيضًا في الواقع رأس طبقة الأغنياء نفسها– لكي يُصدروا هذا الخطر الداهم، فجعلوا يُسخِّرون سلطانهم الديني على السذج، ويبذلون الأموال عن سعة في سبيل تشويه ذلك الدين الجديد، وتسفيه صاحبه وتجريح شرفه وعقله لدى الشعب المخدوع. واشتد ذلك العداء بعد أن هجر إخناتون طيبة، وسكن مدينة آتون (قرب ملوى الآن) وأبطل جميع العبادات، ولا سيما عبادة إله طيبة آمون، فصادر الأموال، وحطم الأصنام، وأقفل المعابد، وأصبح الصراع بين آمون وآتون صراع حياة أو موت.

فقلت لنفرتيتي:

– ذلك موقف أهل المال، وأهل الدين، فكيف كان وساط الناس؟

فتنهدت الملكة وقالت:

– قيل خير الأمور الوسط، ولكن كثيرًا ما يكون الوسط شر الأمور جميعًا، ولاسيما أدنى الوسط من أهل الحواضر؛ لأنهم أهل الطموح والطمع، فيهم سوءات الأدنين والأعلين على السواء.

– هل أفهم من هذا أنهم كانوا حربًا على الدين الجديد، الذي يزمع أن يزيل من وجههم من يسدون عليهم المنافذ من أهل اليسار من مدنيين وكهان؟

– لقد كان منهم الأعداء، ومنهم الأنصار.. ولكن الفريقين جميعًا كانوا حربًا على الدين الجديد، إن عمدًا، أو عفوًا.

– لقد علمنا أن الدين الجديد لم يكن ليستهوي أهل اليسار والجاه التليد، فكان حقيقًا أن يستهوي قومًا من المستضعفين، أو المغمورين من أدنى الوسط في طبقات المجتمع من طلاب العلم المثقفين.. وأن يكون أسبق هؤلاء إلى الدخول فيه النهازون الوصوليون، ممن يرونه فرصة مواتية إلى الجاه في الدولة الجديدة، تصطنعهم وتمنحهم الرتب والألقاب.

– مولاتي! تلك سنة الدول في كل عصر إلى يومنا الحاضر، فالذي يقيم نظامًا جديدًا، أو سلالة ملكية جديدة، لا يأمن على دولته من رجال النظام البائد؛ لأنهم غير مدينين للنظام الجديد بشيء. فيصطنع رجالًا لم يكونوا شيئًا من قبل، لكي يتفانوا في خدمة النظام الجديد؛ لأنهم مدينون له بكيانهم المستحدث وجاههم الطريف.. فوجودهم رهن بقائه وقوته، فلا عجب أن يذودوا عنه مخلصين.

– أو منتفعين مأجورين، همهم ما كسبوا وما نهبوا، أولئك تنقصهم ميزات السلالات العريقة في النبل؛ لأنهم مرتزقة بغير حساب.. انظري من جعلهم بونابرت ملوكًا، وأمراء، ودوقات بعد أن كانوا من الهمل والرعاع، أتراهم ظلوا على عهده من بعد أن زال ملكه؟

– كلا يا مولاتي! بل إن منهم –مثل برنادوت– من خانه وهو في الميدان، ومنهم من ترامى تحت أقدام الملك الجديد لكي يبقى على جاهه وماله.. فاحترام الوصولي للدولة القديمة أكبر دائمًا من احترامه للدولة الجديدة.

– صدقت يا بنية؛ لأن الدولة القديمة كانت أكبر منه جدًّا إذ كان فيها حقيرًا، والدولة الجديدة ليست أكبر منه مطلقًا لأنه صار فيها شيئًا خطيرًا... ومن هذا الجانب يأتي حنين الوصوليين إلى كسب رضا الدولة القديمة، توكيًا لاعتبارهم الجديد، ولكي يثبتوا لأنفسهم أنهم صاروا أصحاب شأن بنفس المقياس الذي كانوا به ولا شأن لهم، وليس نابليون إلا مثلًا من مئات الأمثال في كل بلد، وفي كل جيل.

– هذا شأن الأولياء من الوصوليين.. وهو مفهوم ومعقول، فكيف كان يا مولاتي من هؤلاء أمراء لم يدخلوا في الدين الجديد، فضيعوا الفرصة على أنفسهم؟

– ليس كل وصولي حقيقًا أن يصل، ولا كل نهاز للفرصة يدرك الفرصة حقًّا؛ فالجاه سبيله ضيق، فمن أفلح من الوصوليين ونبه له شأن في الدولة الجديدة، أثار حسد من كانوا مثله، أو من كانوا يحسبون أنفسهم مثله، أو خيرًا منه... وإن شاعركم العربي لصادق حين يقول في هذا الصدد:

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد!

– لله در أبي الطيب! والله هو القول الحكيم!

– أجل! فليست عداوة هي أبعث للتطرف في الخصومة من الحسد الذي ينشب بين الأنداد، وإن ذلك العداء الأكبر لجدير أن يجعل الحاسدين يستميتون في حرب الدولة الجديدة، حتى ينهار جاه من يحسدونهم بانهيارها.

– ولكن هل يعقلون أن الدول الجديدة ترفع الظلم عن المستضعفين وهم منهم، وتزيل كابوس الاستغلال والعسف الجاثم على صدورهم، ممثلًا في كبار الأثرياء، وفجرة الكهان من رهط آمون؟..

– أتقولين هل لا يعقلون؟ وهل كان للحسد عقل يومًا من الأيام يا بنية؟ إن الحسود كالعاشق، كلاهما لا عقل له!

انتقاض الأطراف

فقلت:

– لقد اجتمعت على حرب الدين الجديد شياطين المال، والشعوذة، والحسد... فما أحرى سواد الناس أن يضلوا وراء هؤلاء الغواة.

فقالت الملكة:

– مهلًا! لم يأت أوان النظر في أمر الشعب وما كان منه مع الدين الجديد؛ فتلك الشياطين الثلاثة، شياطين المال، والشعوذة، والحسد إنما تعمل في الداخل على ضفاف النيل، ولكن ثمة عوامل كانت تفعل فعلها في أطراف الدولة، وأجزاء الإمبراطورية المترامية.

– لقد علمت يا مولاتي أن أمر الإمبراطورية قد جنح إلى الإهمال

والتواكل في عهد أبيك أمنحتب الثالث، وأنه كان لا يعنيه منإماراتها إلا ما تفيء عليه من مال، وجوهر نساء حسان.. وإنه كان يتألف قلوب فريق من الأمراء ليشتري ولاءهم أحيانًا.

– كذلك كان الحال.. وهو على عهد إخناتون كان أدعى إلى الضياع مما كان على عهد أبيه، لا لعيب في إخناتون، بل لمزية من أكبر المزايا إذا نظرنا إلى الأمر بمقياس إنساني رفيع.

– وما تلك المزية التي أعقبت به؟

– أن هذا الملك كان رسول دين يقول بالتوحيد، وبالعالمية في العقيدة والوجود، لا تعرف ديانته التمييز بين اللغات والحدود.. فهو لهذا حري أن يكره العنت والاستبداد، وأن يكون البشير الأول بالتنزيه والتجريد، وبحق تقرير المصير للشعوب جميعًا؛ فلم يكن قلبه يطاوعه ولا ضميره يسمح له بإرغام الناس وإكراههم على الخضوع لسلطان يكرهونه، ولو كان هذ السلطان سلطانه هو!

– ما أسمى النظرة، وأقدس الفطرة!

– لولا أنها طرفة!

– ولكنها تستهدف محو الإعنات والأثرة.

– وإن! فالناس عبيد ما ألفوا، ولو كانوا كلهم كإخناتون، لما احتاجوا لإسناد الدعوة إلى إخناتون؛ فالسقاء لا يطلب ولا يذكر حيث الماء قريب ميسر.. فضيع الإمبراطورية والتشاغل عن حفظها منكر عند المنتفعين

بامتلاكها ليس بعده منكر؛ لأنه تضييع منافع خاصة، ولأنه أيضًا جناية على القومية والمجد الوطني، أو هكذا يتسنى للمغرض أن يقول ويعيد، فيؤلب الناس ويستنفر القلوب إلى الحقد على «الخائن المفرط الذي بدد ميراث الأجداد».

– يا له من موقف شائك!

– أجل! وأبعد من هذا في الحرج أن كثيرين من الأمراء رأوا أن الفرصة مواتية للخيانة، أو لعلهم أنسوا في فرعون ضعفًا، أو إهمالًا لحماية أطراف الدولة، فأوجسوا من هجوم الحثيين وغيرهم، فيؤخذون أخذًا شديدًا، فمالوا إلى جانبهم وانحازوا إليهم... وكان أشهرهم في ذلك المسلك «عزيرو بن عبد شراة» صاحب الأموريين، الذي ظل يخادع فرعون ويمنيه بالولاء، ثم انحدر مع الحثيين فانتزعا من مصر معظم ملك الشام وفلسطين لقمة سائغة؛ لأن فرعون كان مشغولًا بفتن الداخل عن نجدة من استنجد به من ولاته المخلصين.. حتى إذا أفاق على الكارثة بعث إليهم جيشًا صغيرًا لم يصمد للعدو طويلًا...

– وي! وفيم الجيش إذا كان يؤمن بالحرية لجميع الشعوب؟

– وهل هي ثورة أهلية في طلب الحرية؟ كلا! فلطالما استنجد به الأهلون أن يحميهم من غزو الحثيين.. ثم إن إخناتون لم يكن مفرطًا في الإمبراطورية طواعية، بل لعله كان يميل إلى الاحتفاظ بها لخدمة هدفه الأسمى.

– عجبًا! وهل يخدم التوحيد، والحرية، والعدل الاجتماعي بالفتح

والاستعمار؟ كيف يتفق هذان؟

– بل يتفقان! فإن آتون إله الناس كافة وليس إله مصر وحدها، فأدعى لنشر عقديته في الخافقين أن يكون تحت سلطان الخافقين. بيد أن فتن الداخل، وعبء الدعوة الجديدة عجلا بفقدان هذا الأمل الكبير، فاجتمع عليه كرب الخارج والداخل.

الغفلة الكبرى

فلم أستطع منع حسرة خالجت نفسي لسوء حظ هذا الرجل الذي جرد نفسه للحق والخير، فأخطأه التوفيق في كل أمر، وقلت لنفرتيتي:

– ما أقساها محنة، فليس في كل ما اكتنفه موضع لمسرة، أو استبشار.

– وهل نسيت الإيمان يا بنية؟ إن إخناتون كان أشد الناس يقينًا بما وكل به نفسه من أمر هذا الدين، فإما أظهره، أو هلك دونه.. وإن ما علمت من أمر طوائف الرعية في مصر والشام هو تألب الأهواء على الحق الذي لا يعرف الهوى.. ولكن الأهواء لا تتم وحدها بغير عنصر الغفلة في سواد الناس. وقد تم هذا العنصر واكتمل في مصر أيام إخناتون، فكل سبب كان يدعو الشعب المصري لمؤازرة إخناتون، والحذر من ذوي الأغراض كهانًا، وثراة، ومثقفين؛ لأن إخناتون كان يحارب هؤلاء انتصارًا لسواد هؤلاء الناس.. فإذا هذه الأسباب نفسها هي التي تجعل سواد الناس يمالئون أهل الهوى ضد إخناتون؛ فيصدقون الكهان أنه كافر، ويصدقون الأغنياء أنه سفيه فاجر، ويصدقون المثقفين أنه خائن للأمانة مهدر لمجد

الأجيال كابرًا عن كابر.

أصل الداء

فقلت مستفسرة:

– إني أعلم أن غفلة الشعب هي أعدى أعدائه، ومجتمع أدوائه، وأنه بغير يقظة الأمة لا خير لها في شيء، وليس أجمع لهذا الأمر من كلمة الإمام محمد عبده: «إذا فقدت الأمة حرية رأيها، وشجاعة إيمانها، فلا خير بها في استقلال، ولا في دستور» ولكن للغفلة في أزمة إخناتون سببًا خاصًّا ولا ريب؛ لأن دواعي البيان المستقيم لم تكون تنقص فرعون وأعوانه ومبشريه؛ فكيف مال الناس عنه وجهلوا حقيقته؟

– لأنهم لم يفهموه.. أجل لم يفهموه على كثرة وسائله في التفهيم، وعلى وضوح أمره بحيث لا يحتاج إلى إيضاح لذي عقل مستقيم.. فالمنطق والمصلحة كلاهما كانا مجتمعين لدى الشعب المصري لتأييده واتباعه، لولا اختلاف الطبائع وغرابة المعدن.

– أي الطبائع وأي معدن؟

– معدن الروح العظيم إخناتون.. فهو معدن غريب لا يألفه معدن عامة الناس.. فهو كالطير الغريب لا يقبله سائر الطير في الحظيرة فيوسعه نكالًا... وهل أغرب عند الناس منه وقد فطروا على الأنانية والطمع، فلا ينتظرون من قادر أن يتورع، ولا هم يفهمونه إذا استطاع فامتنع، أو تمنع؛ لأنهم لو قدروا لما آثروا العفة، فكيف يفهمون من يعف وهو قادر ليس فوق سلطانه رادع؟.. هذا هو الداء الأصيل، والعلة الخفية وراء جميع

العلل التي قد تفسر بها رفض الناس لدعوة إخناتون.. وبغير هذا الاستغراب –والإنسان عدو ما يجهل– لم يكن يقدر نجاح لدعاية أعدائه وارجافهم.

وسكتت الملكة لحظة ثم ندت عنها ضحكة خافتة، فقلت:

– أضحك الله سنك يا مولاتي.

فقالت وهي لا تزال تضحك:

– هو شيء من باب «منطق العواطف»، وهو من أحفل الأبواب بالمفارقات في حياة الإنسان الحافلة بالأعاجيب.

– وما ذاك يا مولاتي؟

– إن فرعون كان إلهًا للمصريين منظورًا، ينوب عن الآلهة المتوارية بحجاب في عالم الأرباب، فكان المصري من عامة الناس يرى له في فرعون أبًا، والرب أعلى مراب الوجود ولا مراء. حتى جاء إخناتون فقال: «لست ربكم الأعلى، ما أنا إلا بشر، إني إنسان ورسول، ولست بإله، فلا تعبدوا إلا إلهي وإلهكم الواحد الأحد» فساءهم منه هذا المقال.

– عجبًا! إنه خلصهم من عبودية سخيفة لملك هو بشر مثلهم!

– وهذا هو موضع المفارقة في منطق العواطف: فإن الرجل منهم وقع في نفسه أنه خرج من هذه الدعوة بصفقة المغبون، كان ملكه إلهًا، فصار مجرد إنسان! كان يملك إلهًا، فأصبحت هذه البضاعة التي كان يملكها وقد نقصت قيمتها كثيرًا... وما أشبه هذا بالخادم الذي يسخطه أن يكتشف

أن سيده موظف في الديوان، وقد كان يحسبه من الوزراء.. فمثل هذه النفوس تكبر في نظر نفسها إذا كبر سادتها، فإذا صغروا شعرت أنها تضاءلت بعد عزة، وتطامنت بعد شموخ.

العزة بالإثم

فصحت مغيظة محنقة:

– إنها العبودية يا مولاتي.

– وهذا أسوأ ما في أحوال المستعبدين؛ فإن كل غل يحطم، عدا ما كان مفروضًا من داخل الإنسان؛ لأنه جزء من فطرة الراسف فيه.

– ولكن هل كان كل الناس على هذا الغرار؟

– كلا... فمنهم من أبى واستكبر؛ لأنه قد أخذته العزة بالإثم، فقد كان حريًا أن يقبل الدعوة من كاهن أو مبشر، أما وهي فرض يفرض من أعلى، من مصدر السلطان، فهو يستنكف أن يترك ما وجد عليه الآباء والأجداد نزولًا على أمر السلطان، لما في ذلك من شبهة الخنوع، أو الزلفى.

– وهذا لعمري أشبه الناس بالقاضي الذي يظلم ليشتهر بين الناس بالعدل!

– أجل! ثم لا تنسى موجة الانحلال والتبذل التي سرت في عهد سلفنا ووالدنا... فكيف يتخلى الناس عن الإسفاف والتحلل من كل قيد، لينزلوا على قيد الفضيلة وناموس الروح؟

– وهل خلا مجتمع يومًا من فسق مستور، أو سافر؟

– كلا! ولكن شيوع الاستنكار العرفي للفسق بجانب انتشار الفسق دليل على وجود «شخصية معنوية» للمجتمع، وحس خلقي دال على حياته وحيويته.. أما إذا انعدم ذلك العرف، كان ذلك آية على زوال شخصية المجتمع المعنوية؛ أي وحدته التي تبقي عليه تماسكه رغم شذوذ أفراده وتفرقهم أشتاتًا... وتلك هي نهاية الجماعة التي لا تنفع فيها رقية راق، ولا طب آس.

فسألت الملكة متلهفة:

– وهل وصل الأمر إلى هذا الحد؟..

– نحمد الله أن لا. فقد بقي الريف المصري بمنجاة من هذا الانحلال، وبقيت الأسر المتوسطة فيه سليمة من الاضمحلال، وتلك أصبع العناية التي حمت مصر من عواقب هذا الانتكاس الخطير.

هذا هو الإنسان

وما فرعون إلا بشر.

وتناولت الملكة شيئًا من زهر البستان جعلت تقلبه بين يديها وأنفها لحظة، ثم التفتت إليَّ لتقول:

– الحق والجمال في ماهيتهما القصوى ينبعان من مصدر واحد: هو الوجدان، وقد أوتي إخناتون عبقرية الحق والجمال من أرقى طراز، فلم يكن شيء في الدنيا أقدس عنده من الحق المطلق، ومن عبادة الجمال وتحريه في أسمى صوره، وهي حب الحق، والعطف، والرحمة... ولأنه يدين بالحق المطلق بشر بالله الحق، والحق لا يتعدد، ولا يتجسد، ولا يتغير، ولا يتبدد؛ ولأنه الله خير كامل، ومحبة لا نهاية لها، كان إخناتون مثل الإنسان المحب، المؤمن بالله المحب.

فقلت للملكة:

– ونعم الخلال هي!.. ولا غرو أن تنوهي بها، فإن التاريخ لم يحفظ حب زوج لزوجته كما حفظ حب إخناتون لنفرتيتي.. أليس حبه كان قسمه إذا أقسم اليمين المغلظة؟

فابتسمت الملكة لتلك الذكرى البعيدة وقالت:

– وما ذلك؟ إنه كان لا يذهب إلى حفل حافل في المعبد، أو في الساحة، أو في القصر، إلا وأنا إلى جواره، وبناتنا الصغيرات من حولنا، أو

بين رجلينا في المركبة تشق بنا شوارع المدينة.

وسكتت الملكة، ثم ابتسمت كأنها ذكرت شيئًا جميلًا آخر:

– إنه كان يقبلني ويبادلني القبلات وهو يقود العربة في الطريق العام، والناس على جانبي الطريق ينظرون! فما أشبه هذا بولع شباب زمانكم بقيادة السيارات ومعهم صواحبهم.

فصحت:

– مولاتي! يا له من تشبيه!

– مع الفارق طبعًا!

– إنه فارق النقيض من النقيض! فليس تشابه الفعل بالفعل شيئًا.. إنما العبرة بالبواعث النفسية. فهل كانت بواعث إخناتون في مثل هذا الموقف هي الاستهتار، والمجون، والتمرد على العرف والقانون؟.. وهل كان يفعل ذلك بأعرض الناس ساطيًا، أو مختلسًا؟

– حاشا له ثم حاشا.. وإنما قصد من ذلك إلى هدف بعيد.

– وإني لمشوقة لمعرفة ذلك الهدف البعيد.

– إنه محو ضلالة العقيدة في ألوهة فرعون؛ فهو يريد أن يشهد الناس كافة أن فرعون ما هو إلا بشر مثلهم رفعه الله مكانًا عليًّا.. وأنه يشعر كما يشعرون، ويصبو كما يصبون.. ثم قصد أيضًا إلى توكيد معنى آخر لا يقل عن ذلك المعنى الديني الذي يمس التوحيد والتنزيه لذات الله.

– وهو؟

– وهو أن الأسرة شيء مقدس، وأن الزوجة شيء طاهر، وأن لا إثم في حب صحيح غير قائم على محض شهوة الجسد، وأن الرجل الفاضل الكامل حقًّا هو الذي يعبد الله بحب زوجته وأولاده... ولا سيما أنه لم يكن لنا بنون، وإنما هن بنات، والناس قد درجوا على أن «ليس الذكر كالأنثى» فأراد أن يدخل في أنفسهم أن الزوجة الفاضلة والبنات نعمة كبرى لا ينبغي أن يغض من قيمتها الرجل الكريم المؤمن بالله الحق المحب واهب الحياة.

معادن الرجال

فقلت:

– هو المثل والقدوة إذن.. وهو التضحية بالذات في سبيل الحق.. فهو يأبى إلا أن يمعن في تحطيم ألوهية فرعون متطرفًا في ذلك إلى حد تعريض هيبته للخطر.

– أجل هي القدوة.. وتعليم الناس، وتصحيح مقاييسهم للرجال والرجولة أيضًا.

– وكيف؟

– إن الناس كانوا يحسبون الرجولة أن يغلظ قلب الرجل منهم فلا يرق لحرمه، ولا يهش لفلذة كبده، ولا يتبسط مع ذوي قرابته وخاصته، ولا يبكي ولو نزلت به الرزايا الجسام.. فكأنما الرجولة «تعطيل» الحياة في الرجل، فلا يعرف السرور، ولا يعرف الحزن، ولا يعرف الحنان.. فأبى إلا أن يصحح ذلك الفهم المعوج؛ لأنه كان رجلًا عميق الشعور، نصيبه من الحياة وإحساساتها نصيب ضخم.. فإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد

حق له أن يبدي للناس ما ألفوا أن يصان عن العيون، تعزيزًا لسلطان الحق إلى جانب تعزيز مكانة الشعور في حياة الإنسان. فهو يلاطفني في المآدب والمحافل، ويداعب بناته، ويدعو رجال دولته إلى مثل ذلك.. فاقتدى به منهم عدد ضخم، حفظت لكم الأيام صورهم مع آلهم، وزوجاتهم، وبنيهم في ألفة محببة، وإن ما يسعدني في غربتي بمتحف برلين، أن بذلك المتحف تمثال صغير لإخناتون يلثم فم ابنتنا الصغيرة في حنان لا حد له.. وهو الحدث الذي لم يسبق إليه في تاريخ الفراعين.

– وإنه لحدث عظيم... فقد نفخ الحياة في قوم كان مثلهم الأعلى أن يكونوا أصنامًا بغير حياة!

– أي والله يا بنية! وإن أنس فلا أنس منظره يوم ماتت بنت من بناتنا السبع، فقد انهمر دمعه مدرارًا، ووقف معي إلى جوار نعشها يندبها ويبكيها غير مقتصد ولا محتجز! وما كان سواد الناس يبكون البنين فضلًا عن البنات.. وناهيك إذن بفرعون سيد الأرضين.

– بل هكذا يكون السيد العظيم حقًّا، ولا يكون إلا كذلك! وما أعرف إنسانًا عظيمًا خجل من الحزن قط.

– صدقت يا بنية.. فهذا الرسول الكريم يبكي يوم وفاة ابنه إبراهيم، ويسوي له لحده بيده، ويقول للجبل: «لو أن بك ما بنا لهدك».

– أجل يا مولاتي.. وهذا رجل فيلسوف مثل ديكرت يبكي ابنته «فرنسيس» التي أنجبها من صديقة له بكاء شديدًا.. لعمري يا مولاتي لقد حسب الناس أنه هبط بمكانة فرعون، من حيث ارتفع بها إخناتون إلى

السماء الأعلى.. ووضع الناس حدًّا فاصلًا بين معادن الرجال، وأشباه الرجال.

الحق والفن

فقالت الملكة:

– وأبى فوق هذا إلا أن يعمم دين الحق والإحساس بالحياة، واطراح النفاق والتصنع، فيشمل الفن كما شمل الحياة.. فانطلق الفن في عصره من أسر التقليد والجمود القديم، ليصير كما ينبغي له أن يكون، معبرًا عن الإحساس بالحياة، وعن الأشكال والألوان على حقيقتها.. فألح في تصويره وتصوير أسرته كما يبدون، بعيوبهم الجسيمة ظاهرة، إمعانًا في تحطيم ألوهية فرعون وآله، ومبالغة في تقديس الحق في كل شيء، وإعلانه بغير مواربة ولا مداراة.

– وإني لأحسب يا مولاتي أن النقلة من طيبة إلى «أخيتاتون»، وإنشاء تلك العاصمة الجديدة بعد أن لم تكن، قد كفلت للفن الجديد الصادق الحر أن يجد الميدان الفسيح للإبداع في غير تعثر ولا تردد...

– طبعًا! لقد أنشئت العاصمة إنشاءً.. فخططت وبنيت معابدها وقصورها على أساس الفن الجديد، الذي يجمع بين البساطة والجمال في آن واحد.

– وزينة القصور؟

– تلك هي الطفرة الكبرى! فقد اختفت مناظر الجبروت والخضوع،

وبرزت مكانها مناظر الطير، والحيوان، والسمك، والزهر، ونور الشمس الباهر يغمرها، وهي تمرح فيه سعيدة ناعمة.. ثم صور فرعون وآله في مجالسهم، وفرعون يداعب، أو يسمر، أو يمد يده بكأس نحوي فأملؤها له من قدر خمر في يدي، وبنت من بناتنا تقدم له شيئًا في طبق على راحتها، وأصغر البنات تحمل إليه أعوادًا من الزهر المونق.

- ما أجمل وما أبدع!

- وأجمل من هذا أن جميع عيوب فرعون وأهله تظهر في ذلك الرسم بكل وضوح.. فالحق والجمال شيء واحد لا يتجزأ.

- وهل رضي عن هذا الرأي أصحاب الفن؟

- ويحك! وهل يرفض الفنان الحق الحرية في الأداء والتعبير؟ إن الفنانين كانوا قبل ذلك اليوم مغلوبين على أمرهم، مرغمين على صب أعمالهم في قوالب التقليد، والمداراة، والتكلف، إرضاءً لضيق أفق السادة، بل الآلهة من فراعين مصر.

وهززت رأسي يمنة ويسرة بحركة خفيفة، ولكنها لم تفت عين الملكة.. فسألتني ماذا يدور برأسي، فقلت:

- لا شيء ذو بال يا مولاتي.. إنما هو خاطر هين.

- وما هو؟

- ذلك التوحيد، وذلك الولوع بالحق.. فلا شيء إلا «الحق» يشغل هذا الإنسان العظيم، لا عن ذكاء وكفى، فما يقوم الذكاء بكل هذا

القسط من الإدراك الذوقي الرفيع، بل عن ألمعية الروح ونفاذ البصيرة، فإنه وعي الكون إلى الأعماق، فتجاوبت معه نفسه إيمانًا بعظمة الموجود الكامل، وانفعالًا بدفعات الحياة من حزن، ونشوة، وفرح، ومحبة.. فكيف اجتمعت هذه الرقة التي لا مثيل لها، وتلك الصرامة والصلابة التي سولت له أن يضرب الضربة الكبرى؟ فإن تحدي الكهان من رهط آمون هول ليس كمثله هول.

– ذلك تمام الإيمان بالواحد الحق، فإن شجاعة الإيمان هي تمام الإيمان، وكان إيمانه –علم الله– في أوج التمام، فأحب ورق عن قوة نفس ورهافة حس، لا عن ضعف ورخاوة، وقاوم، وصمد، وتحدى عن قوة نفس أيضًا ورهافة حس، لا عن قسوة وشره؛ لأن الحق هو دافعه في الحالين على اختلاف المظهرين.

تمام التوحيد

فقلت للملكة:

– الآن فهمت السر الكامن وراء اجتماع الصلابة، والرقة، والطيبة المتناهية في شخص إخناتون.. ولكن ثمة شيء يحيرني، ولا أكاد أجسر على استيضاحه.. لولا أنه لا حياء في العلم.

– لا حياء.. لا حياء.

– إنها مسألة أولاد فرعون.

– أي أولاد؟ إنه لم ينجب إلا سبع بنات ماتت واحدة منهن وبقيت ست.

– مولاتي! هذا موضع الحرج.

– وفيم الحرج؟

– قيل أنه أنجب من غيرك من نساء الحريم ولدين على الأقل: سمنخ كارع، وتوت عنخ آتون.

– وي! إنها لكبيرة من الكبر.

– ألم تكن بين يديه وتحت يمينه القيان والسراري؟

فحملقت الملكة في وجهي مستغربة وقالت:

– إن من يقول هذا، أو يصدقه فقد جهل «روح» إخناتون، وإخناتون روح، وروح عظيم، إنه رجل فطر من حس مرهف ونفس شفافة رفافة كالزهر، سمت فطرته إلى الحق الأسمى، وصفت سريرته، فنفذت إلى كنه الوجود المطلق.. فهل يكون هذا الرجل أخا نزوة، وأسير شهوة؟ إنه صاحب التوحيد في الفن والحياة.. وليس مثله من ينوء تحت غرام الشهوة؛ لقد كان إخناتون موحدًا في كل شيء، ولا سيما في هوى القلب؛ لأن الإيمان والحب عنده شيء واحد، والجسد عنده وعاء الروح، وما كان أرقه من وعاء ثقلت عليه الأدواء، بما ورث وما كلف نفسه من عناء على السواء.. فلا تحسبن إخناتون كان يشتهي امرأة سواي، أو يتدلى إلى خيانة حبه لي، وإنه لشديد.

– ولكن الناس لم يدرجوا على اعتبار التعدد أو التسري خيانة!

– وهم أيضًا لم يدرجوا على اعتبار الوثنية كفرًا وإلحادًا! ولكنها كانت

كذلك عند إخناتون.. فليس مثله من يستعير مقاييسه الخلقية والوجدانية من أحد.. والحب عنده لا يمكن لهذا أن يتعدد، ولا أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيعرف امرأة لأنها أنثى، بعد أن عرفني كما يعرف الإنسان الإنسان، بالروح والوجدان لا بمحض نزوة جسد شهوان.

– ما أشقاني بهذا الذي نقلت إليك.

– هوني عليك! ودعيني أهمس في أذنك، إن إخناتون الذي سجل حياته سافرة كان حريًّا أن يسجل هذا التسري المثمر، ويعلنه على رؤوس الأشهاد.. لولا أنه لم يكن قط.

والعرش؟

فقلت متحيرة:

– ووراثة العرش؟ ألم تخطر له ببال، وألم ترد لك على خاطر فتدفعيه إلى التماس الولد التماسًا؟

– كلا! لم يحزنا ذلك الأمر؛ لأن إخناتون كان قد حسمه واستراح إلى قراره فيه.. فقد كان هناك سمنخ كارع، الذي كان عنده عوضًا عن الولد، وبموضع الولد.

– ابن من هو إذن؟ لقد قال آخرون أنه أخوه الصغير، وأنه لهذا كان يدلله، ويقبله، ويضمه إلى صدره... حتى أرجف المرجفون.

– ألا ساء ما يتوهمون! أتذكرين أخا إخناتون الأكبر، وأخي أنا أيضًا، الذي سمي «تحتمس» وجعله والده كبيرًا للكهان في منف، ووكل إليه شؤون

الثقافة والمعابد في أقطار مصر، ثم مات في ريعانه؟

– أجل أذكره يا مولاتي، وأذكر أن إخناتون خلفه على ولاية العهد.

– هذا هو والد سمنخ كارِع، الذي أحبه إخناتون، وتبناه، ورباه مع بناته، وكان برًّا به، ليهون عليه مرارة اليتم الباكر.. ثم زوجه من كبرى بناته ليرث من بعده العرش.

– وتوت عنخ آموت يا مولاتي.

– هذا فتى من النبلاء أنسباء الأسرة، اصطفاه وزوجه من ابنته الثانية... وذلك تأويل ما لم تعلمي.

– ألا شد ما يظلم الناس كبار الرجال أحياءً، وأمواتًا.

– بل يظلم الكبار أنفسهم، أو يظلمهم قدرهم الذي خلقهم عمالقة في بلاد الأقزام!

محنة الأمين

القمة الباردة

واستأنفت الملكة حديثها عن زوجها الملك، فقالت:

– حمل إخناتون عبء رسالته سنة بعد سنة، محدثًا بذلك أعجب ثورة حدثت، أو تحدث قط في تاريخ هذا الكوكب؛ فقد ألف الناس أن يثور المحكومون على الحاكمين طلبًا لحق مهضوم أو ردًّا لعدوان غشوم. ولكن ثورة هذا الثائر الفذ كانت ثورة حاكم لا ثورة محكوم، ولم تكن تهدف إلى تعزيز السلطان، بل إلى تغيير أساس السلطة، ونظام الحكم لمصلحة المحكومين أنفسهم. كانت ثورة مثالية لتحقيق الحرية، بل لإقامة النظم الاشتراكية. والمفروض في الثورات أن يتحمل الثائرون أعباءها لمصلحتهم، ومصلحة طبقتهم، فإذا بثورة هذا الثائر الفريد تنصب على حقوقه وحقوق فئته من الفراعين. فقد ولد إلهًا فأبى إلا أن يصيح في آذان الناس: إني بشر فلا تعبدوني، واعبدوا ربي وربكم، وكان الناس يرون أن أهم صفات الرجل العظيم –وفرعون رأس العظماء إطلاقًا– شدة البأس، والجبروت، والقهر، فإذا هو يعلن على الملأ أن خاصة العظمة هي الحب والرحمة، لا الجبروت والبأس. وأن صفة العزيز أنه الحكيم الرحيم، لا القاهر الغشوم.. فكان أول من نادى بتعاليم المسيحية قبل المسيح بثلاثة عشر قرنًا، وقبل الموسَوية بزمان طويل. فكان الرائد الذي لم يسبق، وظل قرونًا طوالًا لا يدرك ولا يلحق.. بل إن حلمه الرائع ظل إلى اليوم دون أن يتحقق!

– إنها عبقرية الذوق المرهف، والإلهام الرفيع.

– هي العبقرية أجل.. وما من عبقرية إلا وعليها ضريبة تصاعدية، تزداد بمقدار عظمتها وتفردها. وأقسى هذه الضرائب على الإطلاق هي «القمة الباردة».

– ما هي القمة الباردة؟

– هي الوحشة التامة الناجمة عن التفرد والانقطاع في علو شاهق من آفاق الروح والفكر، لا يشرك المرء فيها أحدًا من الناس.. وكلما ارتفعت هذه القمة عن زمانها وبني جيلها كانت العزلة أكمل، والوحشة أتم. فتنقطع بين العبقري وبين أبناء جيله الأسباب، فهو فيهم وليس منهم، وبينهم وليس مثلهم، ولا هم مثله في أخص خصائصه التي من أجلها يعيش، وهي مبادئه ونظرته إلى الكون والحياة.

خطأ الأريب

فقلت للملكة:

– إن العبقري لا يخلو من التبعة كل الخلو في هذا الشقاء الذي يعانيه بانقطاع الناس عنه، وانقطاعه عنهم في «القمة البارة».

فسألتني الملكة في دهشة شديدة:

– وكيف؟

_ ألم يتبين منذ البداية أنه بعد عنهم، وكلفهم في مرتقاه ما لا طاقة لهم به؟ فكيف إذن يلومهم بعد ذلك كأنه يجهل حقيقة موقفه منهم؟

– وما الذي أنبأك أنه يتبين منذ البداية صعوبة المرتقى على أهل زمانه الذين يعني نفسه بتبشيرهم وتبصيرهم؟

– وكيف لا يتبين ذلك وهو الفطن الأريب؟

– لأنه فطن أريب! ألا تذكرين قول صاحبك أبي العلاء:

وأعجب مني كيف أخطئ دائمًا على أنني من أعرف الناس بالناس؟!

كذلك كل عبقري أريب.. فإنه يحسب الناس جميعًا خلقوا على غراره، أو هم على الأقل لا يختلفون عنه اختلاف الطبع الأصيل، وإنما هي اختلافات في العرض لا في الجوهر.

ومن هنا يأتي خطأ العبقري في فهم بني جيله.. فهو يحسب طريقة إحساسه وتفكيره هي الطريقة البديهية التي لا تحتمل الخلاف، وأنه يكفي التنبيه إليها ليثوب إليها كل من شذ عنها.. وتعمل الحماسة للفكرة والعقيدة على خداع صاحبها، فلا يتبين مدى الكون الشاسع بينه وبين سائر الخلق، حتى ينقضي زمن طويل، فإذا هو مخدوع طالت عليه الخديعة، وإذا من يحسبهم حوله أو قريبين منه بعيدون جدًّا، وإذا به وحيد فوق «القمة الباردة» بغير أنيس ولا شريك... فيحس بالمرارة وخيبة الرجاء، وقد يستولي عليه القنوط من أداء رسالته.

– واهًا له!.. ولكن لماذا يهتم العبقري كل هذا الاهتمام بالناس؟

– هذا يا بنية داء البعقرية، على اختلاف في الدرجة والشدة؛ فعباقرة الفنون والفلسفة يتركون للأجيال القادمة أعمالهم ويضعون فيها أملهم، فلا

يسرع إليهم القنوط، ولا تبلغ منهم المرارة كل هذا المبلغ، أما عباقرة العقائد، فلا سبيل لهم إلى التغاضي عن انفضاض الناس عنهم؛ لأن الناس هم «موضوع» رسالتهم، و«الوسط» الضروري الذي لا يمكن أن تتحقق بدونه تلك الرسالة. وذلك ما وصل إليه إخناتون بعد سنين من التبشير والكفاح الذي لا ينقطع، فكان ذلك أقسى عليه من المرض، ومن آلام الجهاد العنيف الذي يثقل على من خلق مثله كارهًا للعنف بفطرته.

خيوط المؤامرة

فسألت الملكة في شيء من الدهشة:

– ولكن لماذا طالت هذه المدة، فلم يفطن إخناتون للحقيقة قبل ذلك الوقت المتأخر؟

– لأنه كان يا بنية ضحية مؤامرة محبوكة الأطراف.

– مؤامرة؟ ومن دبر هذه المؤامرة؟

– لا أحد.. إنه القدر، وليس مثل القدر إذا أحكم ما دبر؛ فقد ائتلفت عناصر مختلفة، واجتمعت على خداع إخناتون، فهو رسول دين، ولكنه ملك الأرضين.. وهو ملك نافذ السلطان، ولكن رجاله من طراز خلقه خلقًا، ولم يكونوا من قبل أهل حكم وسياسة.. ففيهم الغر، وفيهم الوصولي، وفيهم من يأكل على المائدتين، ويضلع مع كهنة آمون، وفيهم من يتهم إخناتون بالغفلة –لأنه لا يفهمه– ولكنه يستغل هذه الغفلة للثراء والتقدم في المناصب. فأولئك كلهم خدعوه.. وخدعه كذلك معظم المخلصين من أنصاره؛ لأنهم كانوا يحسبون لحماستهم أن دينهم انتصر

وانتشر حقًّا، أو لأنهم كانوا يحبونه فلا يريدون إدخال الحزن على قلبه الكبير بتثبيط عزمه وإثقال همه... فظل يجهل حقيقة موقف الناس منه، وحقيقة الاضطرابات التي نشبت في الإمبراطوية، حتى ساء الموقف فيها، فلما علم بالحقيقة ظل محيرًا لا يدري ما يصنع؛ فإنه قادر أن يبطش، ولكن «أزمة ضمير» فريدة في نوعها استولت عليه: أينكر مبادئه ومثله العليا التي ينادي بها فيقهر ويرغم على الخضوع من ثار وخان، أو يبقي على مبادئه ومثله ويفرغ لتوطيد الدين الحق في مصر أولًا وقبل كل شيء.. حتى سبق السيف العزل، وسقطت «طونيب»، وزالت الراية المصرية عن بلاد الشام، وأوغل الحثيون في الأرض إيغالًا ينذر بالأخطار الجسام.

كشف النقاب

فقلت للملكة:

– كل هذا مفهوم، ولكنه لا يفسر كيف صحا إخناتون في وقت معلوم على صوت الحقيقة الصارخة الذي ظل لا يسمعه، وهو المبشر بالحق يتحراه، ولا يرد عنه بديلًا؟

– صحا على صوت مؤامرة أخرى.

– من صنع القدر أيضًا؟!

– من صنع البشر لا من صنع القدر.. فقد دبرها رجال آمون، وسعوا إلى تحقيقها مستعينين برجال من حرسه الخاص.

– إنه سحر المال، وإغراء الذهب ولا شك.

– لا أظن! فإن المال لا يغري جنديًّا على تعريض حياته للخطر المحقق بقتل ملك، وأي ملك؟ فرعون مصر!

– ماذا إذن أغراهم أن يركبوا ذلك المركب الصعب؟

– ما هو أغلى من الحياة عند مثل هؤلاء.. فهم من رجال الجنوب، من أهل القبائل التي لا تزال على الفطرة، وهم لا يفهمون ولا «يهضمون» فلسفة إخناتون الروحية، ولا شك أنهم كانوا ينظرون إلى ظواهر أعمال إخناتون في حياته الخاصة والعامة، من التبسط والتحرر، نظرتهم إلى المجون والخلاعة التي لا تليق بالملك، وتخدش العرف والحياء.. ولا سيما أن دعايات كهان آمون، ورجال المال كانت كلها مسخرة لتشويه سمعة الملك.

– وكيف تتركهم الشرطة يذيعون هذا؟

– لأن سلاح المقاومة دائمًا في هذه الحالة هو الجمعات السرية، ولا يعجز قوم مثل كهان آمون لهم منظمات، وحول، وطول، وأشيع، وأتباع أن يبثوا الدعاوي السرية في كل مكان.. ويضاف إلى ذلك أهم أصحاب السلطان الروحي الموروث المألوف، والناس عبيد ما ألفوا.

– وكيف إذن نجا فرعون من المؤامرة؟

– لأن قومًا آخرين ممن لمست قلوبهم طيبة فرعون وشوا بالمتآمرين فضبطوا متلبسين، وحوكموا، وعوقبوا أشد عقاب.. وحمد الناس جميعًا يد العناية التي حمت فرعون، إلا فرعون نفسه، فإن وقع هذه المؤامرة على نفسه كان حسامًا؛ لأنها دلته على حقيقة المخبوء وراها. فلم ينطل عليه قول القائلين أن سلطان المال هو الدافع إلى القيام بها، ولم يفارق ذهنه منذ

ذلك اليوم معنى هذه المؤامرة، وبدا ينظر إلى من حوله بعين جديدة.. فاكتشف خبيئة نفس الكثيرين منهم، فأقصى من أقصى ممن كان قد رفعهم.. ولكنه كف بعد ذلك عن الإقصاء والعقاب، عندما رأى الداء أشد انتشارًا مما كان قدر، فبلغ منه التقزز حد عدم الاكتراث.. وعدم الاكتراث صنو القنوط.

ضعف الأمين

وبدا الأسف واضحًا على وجه الملكة، فقلت لها:

– إن القنوط أشأم ما يصاب به إنسان، ولاسيما أصحاب الرسالات منهم.. ولكن أين قوة الإيمان؟

– ليس قنوط هذا الطراز من البشر عن وهن في إيمانهم، وإن بدا كذلك. وإنما هو على العكس مما يبدو لأول وهلة، نتيجة لازمة لقوة الإيمان، وقصور وسائل الإمكان. أليس المسيح بعد ذلك بثلاثة عشر قرنًا قد عانى من اليهود ما عانى، حتى صاح يناجي ربه: «إلهي.. إلهي.. لماذا تركتني؟»... فهو يستنجدبربه ما وعده به من نصر، كذلك كان قنوط إخناتون.. إنها موجة التشاؤم من الناس، لا من الحق الذي يدعو إليه.. وقد كان تشاؤمه شديدًا جدًّا.

– وأنت يا مولاتي؟ أنت؟ كيف يئس وأنت إلى جواره؟ ألم تكوني مؤمنة به كل الإيمان؟

– ما في ذلك ريب! وكان يعلم هذا، ولكنه لم يبعث رسولًا إلى نفسه، فإنما يبعث الرسل للناس، وأنا عند إخناتون صنو نفسه بشريعة ذلك الحب

الفريد الذي ربط بين قلبينا، بل وحد بين روحينا.. فكنت أنا بإيماني به غير قادرة عل عزائه، في حين كان ينبغي أن أكون موئل عزائه.

– يا للرجل المسكين!

– تلك حقًّا كانت كلمة كل من أحبه في ذلك الظرف الدقيق، حتى أن أمنا الملكة تي أسرعت إليه من قصرها شرقي طيبة لكي تطمئن عليه، وتسري عنه بعض التسرية مما يجد.. ففرح بزيارتها التي لم تعش بعدها طويلًا، وتركته يجتر آلامه، ويشكو إلى الله «ضعف الأمين، وقوة الخائن»...

سكتت الملكة لحظة، فاحترمت صمتها حتى عادت إلى الحديث:

– لقد رأى نفسه في مفرق الطرق، وما من طريق منها يؤدي إلى السعادة وراحة النفس، وإنما هما طريقان، وحديث نفسه في أمرهما كقول أبي علي بن الرومي:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج   طريقان شتى: مستقم وأعوج!

وأصعب ما في الأمر أن الطريق المستقيم ليس أحلى من الأعوج مذاقًا.

– وما الأعوج، وما المستقيم؟

– أما الأعوج فهو التخلي عن الحياة، وقد تعذرت عليه حياته، وعاف أن يعيش في دنيا لا تفهمه ولا تستجيب لدعوته إلى الخير.. وأما المستقيم فهو الانطواء على نفسه وترك الدعوة.

– وكيف ذلك؟

– بترك العرش لـ«سمنخ كارع» ولي عهده وزوج ابنتنا الكبرى، وهو ابن أخيه تحتمس الذي توفي في منف.. ثم يعيش معي، ومع البنات والأنصار المختارين في ظلال الدين الجديد، في شبه دير من الأديرة التي عرفت في مصر على عهد المسيحية.

وسكتت الملكة فجأة، وقد لمعت عيناها.. ثم لم تلبث أن قالت:

– من عجب أنه كتب على مصر أن تكون أول بلد يعرف الأديرة والنساك في الصوامع... لماذا؟ لأنها عرفت استقلال الرأي الذي لا محيص لصاحبه أن يعتزل الناس، لينجو بنفسه وعقيدته من القنوط، أو من الموت، أو مما هو شر منهما وهو المسخ، أو الابتذال.

البداية والنهاية

روح ولا جسم...

وفجأة رأيت نفسي على مشارف الصحراء، فسالت الملكة في دهشة:

– وي! إلى أين؟ وأين نحن الآن؟

– إننا يا بنية حيث وقف التاريخ من خبر إخناتون.. فمبلغ ما وعي الدهر من أمره بعد ما تقدم، أن سمنخ كارع خلف إخناتون على عرش مصر.. أما أين ذهب إخناتون؟ وهل مات أو قتل؟ ولئن مات أو قتل فأين جثته فيما حفظ الدهر من أجساد الأجداد؟.. كل هذه أسئلة لا يجد التاريخ عليها جوابًا؛ فقصارى ما يعرف التاريخ من هذا الأمر أن إخناتون اطلع في ظلمات الماضي نورًا ثاقبًا، ولكنه كان نورًا بلا نار، وحرارة بلا أوار. وأن ذلك الروح العظيم رحل عن الدنيا فلم يخلف وراءه جسمًا محفوظًا، كأنه كان روحًا بلا جسم.

فقلت في أسي وخشوع:

– مولاتي. تقدست آلاء الله.. ألا ما أحسن مقالة ابن الفارض فيه:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواء ونور ولا نار، وروح ولا جسم

وإنه لكلام بديع وغزل رفيع، وإنه لمن الجيد القليل في شعر هذا الشاعر المتصوف.

– هو شعر جميل حقًّا، ولو كانت العربية لسان إخناتون لقال مثل ذلك أو ما في طبقته.

– بل إن إخناتون يا مولاتي قال في الذات العليا شعرًا من أعلى طبقة في الشعر العالمي في جميع اللغات، وفي جميع العصور، وليس فيما حفظ منه سطر واحد من سقط القول.. ولكني يا مولاتي أرى في النفس حاجة لم تنقض.. أأصرح بها أو أكتمها؟

– سيان! فإني عرفتها، ولأقضينها.. وإنما أردت أن أوفر عليك تعبًا وعناء قيل، وقال في غير ذي بال.. إنك تريدين معرفة اليقين عن نهاية إخناتون.

– ذلك والله ما عنيت: فإني أريد أن أعرف كيف ودع الحياة ذلك الروح العظيم، أعظم روح خطرت تحت سماء مصر منذ الأزل.

– سأروي هذا الشوق، ولكني أخشى إن رويته للناس أن يقال أضغاث أحلام، ونسج أوهام.

– لا عليك يا مولاتي.. فما على الحالم بأس إذا استعصى الواقع الملموس على طالب المعرفة.

من هنا نبدأ

فقالت الملكة:

– إذن من هنا نبدأ..

– نبدأ ماذا؟

– نبدأ طريق النهاية، التي خالها إخناتون طريق البداية؛ ففي هذا الموضع على باب الصحراء وقف ذلك الإنسان إخناتون محيرًا يسأل الفجر، ويستشف من أنواره نورًا لضميره الحائر: أيظل ملكًا، أم يخلص للنبوة؟ وهل هو نبي حقًّا ورسول معزز، أو هو «صوت صارخ في الآفاق، أن افتحوا قلوبكم لنور الله الذي يزمع أن يشرق».

– لقد بدأ يشك إذن...

– أجل، ولكن في نفسه لا في رسالته، في عمله لا في إيمانه، فقد تبين له أن الإيمان لا يلقى إلى الناس من أعلى، من حكامهم، بل يجب أن يخرج من أعماقهم، فيرتفع رويدًا رويدًا، حتى يغمر القمة كما غمر القاع. ومن أجل هذا أيقن أن الشعب هو البداية، وأن التبشير بالحق يجب أن يبدأ من هنا.. من لا شيء، من الداعية المجهول بين الناس، ومن البرية، ومن الريف، ومن الصحراء، يزحف على المدينة وعلى القصر.. ولكن شيئًا واحدًا وقف كالغصة المعترضة في الحق.. ذلك هو أنا، هل يتركني وحيدة بلا معين؟ هل يدعني وبناتي للمخاطر والأهوال؟ أيأمن عليَّ من أعدائه، وأعدائي؟

واضطرب صوت الملكة، واختلج بدنها وهي تقول بعد صمت قليل:

– وشهدته أنوار الفجر في هذا المكان، واقفًا ينظر إلى الأفق، منكس الرأس، محزون الفؤاد، وفي عينيه الصفايتين دموع تنحدر على خده الناحل في صمت.. أجل في صمت، ولو كان للعواطف والأحاسيس صوت لسمع في صدره كهزيم الرعد في ليلة عاصفة.

وسكتت الملكة برهة أخرى، حتى هدأ جأشها.. ثم قالت بصوت تبدو فيه العزة والزهو:

– وأخيرًا انتصر الواجب، وكانت للإيمان ورسالة الحق الكلمة العليا.. وعاد إخناتون إلى القصر بعد صلاة الصبح الباكر مطمئن النفس، فنام إلى الضحى، ثم كتب رسالة إلى «حور محب» قائد الجيش في منف أن يكون على أهبة السفر إلى العاصمة لحماية ولي عهده.

– ألم يكن حور محب على دين آمون في دخيلة نفسه؟

– بلى! ولكنه كان رجلًا، وكان إخناتون يقدر أن آمون يجب أن يسترد السلطان، حتى يتسنى له في حياته الجديدة أن يتغلب عليه؛ لأن تحدي السلطان أحب إلى الناس من ممالأته!

«فلما كان المساء.. خرج الملك وحده كما كان يخرج أحيانًا، وقبلني وقبل البنيات، ولكن لم أحسب أنها قبلة الوداع الأخير.. وابتعله الظلام في الصحراء، في ثياب كان قد أعدها في المعبد لهذا الغرض، فبدا درويشًا من دراويش «أون» دين الشمس القديم الذي كان يعبد في هليوبوليس.

– وترك القصر فارغًا؟

– أجل! تركه فارغًا، بعد أن وضع في يد «آي» قائد الحرس ووالد مرضعتي رسالة إلى «مريرع» كبير كهان آتون، أن يعلن في الناس وفاته، وتولية ولي العهد سمنخ كارع، وأن جثته حنطت في مكان حريز حتى لا تتعرض لانتقام كهان آمون وسحرهم، وكان سحرهم مضرب المثل عند العامة.

– وهل طابت نفسه بتركك؟

– بل طابت نفسه بالفداء وخدمة القضية الكبرى، قضية الله، متجردًا من كل ما كان له في الدنيا من سلطان، ومال، وولد، وغرام.

– ما أهوله من فداء لم تحفظ مثله الأيام!

– هيهات أن يقدم على مثله أحد قط، ألم يولد ملكًا فآثر الفاقة، وغنيًّا فآثر الخصاصة، وأبًا فآثر العقم، ومحبوبًا فآثر الحرمان، وعزيزًا فآثر الوحدة والمهانة؟! وراح يبغي نجوة من كل نعم الدنيا، في سبيل نعيم الروح الذي لم يؤمن به سواه، ولكنه كان عنده أوثق وأثبت وجودًا من التاج، ومن الجيش، ومن كنوز الأرض، ومن الحبيبة والولد.. والولد من دواعي الجبن والبخل، إلا عند من عصمهم الله واصطفاهم لدعوة الحق، فطهرهم من زغل الدنيا وفتنتها تطهيرًا.

– كذلك إذن مضى إخناتون؟

– أجل، مضى ناجيًا بدينه من دنياه.. ومهاجرًا من الملك الشاسع والجاه العريض إلى كنف الله.

– سلام على إخناتون.. وفي حفظ الله.

غاية المسعى

وضحكت الملكة ضحكة حزينة، ثم أجابتني:

– راح إخناتون يبشر بالوحدانية متنكرًا، في أسواق الريف، وفي جموع الناس عند الغروب أمام المعابد.. يأكل مما يقدم له ولو كان من نفاية

الطعام، ويشرك معه فيه كلبه الذي تبعه في مهجره مثل ظله.

وسكتت الملكة، كأنها تسترجع ما غاب، ثم هزت رأسها في أسى وقالت:

– ما أشبه الليلة بالبارحة! إن التعصب آفة البشرية التي لا آفة مثلها، فهذا الشاب من المتحمسين لآتون، ولإخناتون دون أن يراه رأي العين قط، يشعر أن «الدرويش» يردد معاني فرعون الذي «قضى»، فيضيق بهذا التقليد –ولاسيما أن الدرويش كان يتحاشى ذكر اسم آتون، وإخناتون، وكان يتكلم في التوحيد والمحبة عمومًا– وقام برأس الفتى المفتون أن «الدرويش» يريد أن يغتصب شرف التبشير بالواحدانية من إخناتون.. فقام إليه وهو نائم في العراء تحت شجرة، فذبحه ذبح الشاة..

وأشرقت الشمس على جثة بلا رأس، لأن الفتى أخذ الرأس وألقى بها في النهر.. ولم يبك أعز البشر في زمانه أحد إلا كلبه الذي جعل يقطع سكون الليل بعوائه الحزين... وكذلك مضر رجل المحبة، والسلام، محرومًا من المحبة ومن السلام، بيد واحد يحسب نفسه ويحسبه الناس نصيرًا مخلصًا لرجل المحبة والسلام.

– وأسفاه! ما أشبه الليلة بالبارحة حقًّا.

– وكيف لا يا بنية؟ والإنسان هو الإنسان، وإنه لجهول، وإنه لظلوم.

– «إن الإنسان لفي خسر».. وصدق الله العظيم.

كنانة اللّه في مهب الريح

وعلى صخرة ناتئة في سهل الصحراء المترامي جلست الملكة.. وجلست صامتة في انتظار خروجها من صمتها.

فلما طال بها الصمت قلت لها:

– وماذا كان من أمرك بعدها؟

– وماذا يمكن أن يكون من أمر ريشة في مهب الريح؟.. لقد كان خبر موت الملك صدمة لي حين زعمه مريرع للناس كأمر فرعون، فصدقته.. ولكني رأيت حور محب يدخل القصر فجأة، فأيقنت أن رسالة زوجي، وملكي، وشقيقي في خطر، فكدت أجن، وكانت عقيدته قد جعلت فكرة العالمية والإنسانية غالبة على فكرة الوطنية، أليس الله الواحد إله الناس كافة؟ فخطر لي أن أدعو ابن أمير الحثيين لدخول مصر، فيتزوجني إذا شاء أو إحدى بناتي، حتى يصون دين آتون وينشره في مصر وفي بلاده أيضًا ثمنًا للعرش.. فيصان الدين، ويعز جانبه، ولا يعود الأمر إلى كهنة آمون، وأنا أعلم أنهم لن يرحموا حزبنا، ولن يرحموا أسرتنا من الانتقام الرهيب، أو كذلك خيل إليَّ الوهم.

– وهل فعلت ذلك حقًّا يا مولاتي؟

– أجل فعلته.. ولكن فراسة إخناتون كانت أصدق من فراستي، فقد كان خبيرًا بالرجال، وكانت ثقته بحور محب ثقة صائبة.. أو قولي أن مصر

كنانه الله في أرضه، من أرادها بسوء قصم الله ظهره.

– وهل قصم الله ظهر من أرادها بسوء؟

– أجل! فقد كان حور محب يراقب كل شيء في الخفاء، فوقع في يده خطابي، فلم يعوقه، بل تربص على الحدود حتى إذا أراد ابن أمير الحثيين أن يعبر إلى مصر، ذبحه وحاشيته ذبح الشاة، ونجا لمصر مجدها.. واستقر الملك لسمنخ كارع ما عاش من أيام الدنيا.

الوحدة القومية

– ولكن كيف علمت يا مولاتي حقيقة ما حدث لزوجك إخناتون؟

– لم أعرف الحقيقة في حياتي؛ وإنما عرفتها بعد أن فارقت الدنيا.

– ورسالة إخناتون.. من الذي حملها إلى الناس؟

– لم يحملها أحد.. حتى بعث لها الله من رسله من بعث... فقد عادت عبادة آمون إلى الحياة، مكتسحة في طريقها كل ما أنشأه إخناتون، فإن حور محب رأى أن نجاة مصر من الخطر الخارجي لا تمكن إلا بالقضاء على الانقسامات الداخلية، فنصح لسمنخ كارع أن يعيد عبادة آمون، ليوطد سلطانه على العرش.. فصدع بالأمر، وتحققت الوحدة القومية، وتسنى لمصر أن تسترد مع الأيام مجدها، وهيبتها في الشرق.

فسألت الملكة في تلعثم:

– وأنت يا مولاتي؟ كيف تركت الدنيا؟ وأين جسمك من هذه الأرض؟

فوجمت نفرتيتي لحظة ثم قالت:

– وماذا تنتظرين أن أفعل، وقد فقدت كل شيء؟ فقدت الرجل الذي أحببته وأحبني، ورفعني فوق كل مقام، وفقدت عطف ابنتي وزوجها الملك الجديد؛ لأنني أردت أن أوطئ عرش مصر رجلًا غريبًا، وفقدت عطف قومي جميعًا لهذا السبب:

والناس من يلق خيرًا قائلون له   ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل!

«فكان لأمي الهبل يا بنية، منبوذة بعد عزة، وبدأت أشعر بمدى الفراغ الذي خلفه في حياتي زوجي، وشقيقي، وحبيبي إخناتون».

وسكتت الملكة لحظة، ثم رفعت رأسها إليَّ وقالت:

– وفي ذات ليلة من ليالي الصيف القمراء، خيل إليَّ أني أسمع صوت إخناتون آتيًا من الصحراء، يدعوني إليه.. فقلت: (لبيك. لبيك).. وتجرعت السم.. وانطلقت روحي إليه.

«فلما أقبل الصباح، وعلم القاصي والداني خبر موتي، انفجر مرجل الغضب العام، ورفض الكهنة أن أحظى بما يكرم به الموتى من التحنيط.. فعاد التراب إلى التراب».

– ولكن المحظوظ في الدنيا محظوظ في الآخرة، ولو فني جسده وصار ترابًا؛ فقد لقيت في حياتي من الحب ما لم تلق امرأة، حتى إذا صرت تمثالًا، صارت لي من الشهرة ما لم يشتهر به تمثال، وسرقني السارقون كما سرقت هيلانة بطلة حروب طروادة.. ولم تنته مغامراتي الغرامية بالموت!.. كلا! فقد استحدث لي الدهر عاشقًا في برلين.

– عاشقًا في برلين؟

– أجل!.. إنه الفوهرر هتلر.

– أأهنئك به يا مولاتي أو..؟

– لست أمزح.. فقد كانت لي في برلين قاعة خاصة على الطراز الفرعوني، وكان هتلر لا يجد متسعًا لزيارة المتحف نهارًا، فكان يزوره ليلًا، فشاع بين الناس أنه يعشقني، وأنه يأتي لزيارتي تحت جنح الليل ليأمن عيون العزال!

خاتمة المطاف

ووضعت الملكة يدها فوق كاهلي، وهي تهم بالانصراف وقالت لي: «لا أحب أن أفارقك يا بنية قبل أن أقول لك كلمة أخيرة، هي محصل كل هذا العناء الذي لقيه إخناتون، ويلقاه كل صاحب رسالة في دنيا البشر:

«لكل شيء في الحياة أوانه المرسوم، وطوره المعلوم، ولن تقوم قائمة لأثبت الدعاوي وأحقها في غير أوانها، ولو أيدها أعظم ما في الأرض من سلطان.. وقد كانت نصيحة إخناتون خطوة قبل الأوان، ولا تزال كل دعوة من قبيلها سابقة للأوان.».

فقلت أسألها: «ولماذا تظهر الدعوات قبل الأوان، إذا لم يكن مقدرًا لها إلا الخذلان؟ لماذا يشقى بها أصحابها وهم لا يريدون بها إلا الخير لبني الإنسان؟ لماذا؟ لماذا؟».

ولم أتلق جوابًا إلا ابتسامة باهتة من الملكة، تلاشت بها صورتها.

وفتحت عيني، لألقى الدنيا بهذا السؤال:

– لماذا يشقى دعاة الخير في عالم هو إلى الخير فقير؟.. لماذا؟ لماذا؟ وإلى متى يا رب هذا الضلال؟

أعطنا يا رب مزيدًا من النور، وأنر لنا قبل ذلك قلوبنا حتى لا نتنكر للنور.

الفهرس